مراد داؤد

إعتراف رجل مهم

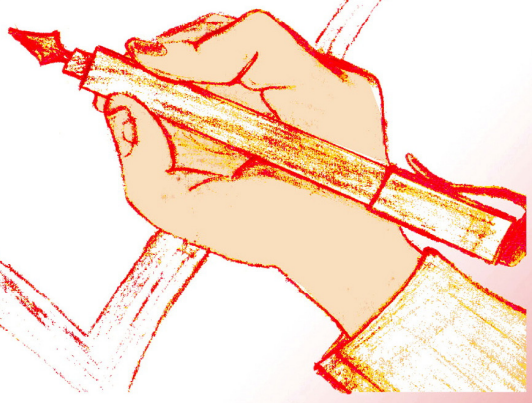

رواية

دار الفكر - سورية
سرورة - سلمية

مـراد داؤد

اعتراف رجل مهم

رواية

دار الغدير
سورية - سلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٨ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

طباعة وتنفيذ
دار الغدير للطباعة والتوزيع
سورية ـ سلمية ـ ☎ ٨١٦١٧٩

تدقيق لغوي :
أ . أحمد حسين فطّوم

تصميم الغلاف :
علاء مراد داؤد

" أنا منحرف بكل ما لهذه الكلمة من معنى "

قالها و هو يقف أمام هيئة رسمية متخصصة بقضايا الدولة وكان قد قرر أن يمثل أمامها بمحض إرادته كي يسرد و يفصل ما كانت قد اقترفت يداه عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ أو بالأحرى ما كان قد أجبر على فعله كما سيتوضّح لاحقاً.

ضرب بكلتي يديه على زجاج طاولة وقف أمامها صائحاً:

ـ أيها السادة لقد تعبت أريد أن أنام وأرتاح لأنني منذ مدة طويلة لم أذق طعم النوم والراحة أريد أن أعترف أمام عدالتكم بكل ما اقترفت يداي من آثام.ظهرت معالم الذهول على وجوه و سحنات كـلٍ من المستشار ومساعديه لغرابة ما يسمعونه وما يصدر عن هذا الشخص الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بأعماله وأفعاله و سيطه الذي انتشر ليعمّ البلد بأكمله إذ أصبح يمثل للمجتمع بكافة أطيافه رمزاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى كون أعماله الخيرة ملأت ساعات البث التلفزيوني الخاصة بمحطات الدولة وكذلك جل وقت أبواق دعايته من أزلامه وأتباعه ومن لفّ لفهم

إذ كان للمتدينين شيخاً وقساً وحاخاماً لشدة ورعه وكثرة عظاته وإرشاداته وكذلك لإمامته الجميع في عمل الخير علـى الدوام والابتعاد عن كل معصية أجارنا الله منها.تلك كانت جملته المفضلة على الدوام الأمر الذي فرض على المستشار ومساعديه أن يتداعوا لعقد خلوة يبحثون فيها هذا الأمر الطارئ والجديد على كل المستويات حيث توجه المستشار لحاجب القاعة قائلاً:

ـ أحضر للسيد شيئاً يشربه ريثما ننتهي من خلوتنا هذه

و من ثم وجه كلامه للسيد قائلاً:

ـ سيدي الكريم اجلس واسترح قليلاً ريثما نعود ونكون بأمرك.

هزّ السيد رأسه موافقاً وعلامات الاضطراب بادية على كل جسده من رعشة يديه حتى حركة شفتيه إذ جلس ومسح بيده على وجهه وجبهته ومن ثم انساب بها على شعره متابعاً هكذا حتى مؤخرة رأسه.

تنبه للحاجب الذي بادره قائلاً وهو يناوله كأساً حوى شراباً برتقالي اللون:

ـ تفضل يا سيدي بالهناء والسرور إن شاء الله.

تناول الكأس بيده اليمنى دون أن ينطق ببنت شفة ،أمسكها بكلتي يديه وهو مطرقٌ رأسه كمن يحاول تجميع وللمة أفكاره.

غادر الحاجب وهو يرمق السيد بنظرات ريبة وتساؤل.

في قاعة جانبية تداعى المستشار ومساعداه لذاك الاجتماع المغلق إذ تحلقوا جميعهم حول طاولة مستديرة صغيرة المساحة لدرجة كادت جباههم أن تلامس بعضها البعض .

" ما هو رأيك يا أستاذ عيدو " قالها المستشار موجهاً كلامه لمساعده الأول الذي أجاب وهو يفرك يديه :

ـ حقاً إنه لأمر غريب يا سيدي لأنّ ما يصدر عن هذا السيد لخبط أفكاري لدرجة أني بتُّ معها لا أستطيع تكوين فكرة واضحة.

ـ وأنت يا أستاذ حميد.

ـ وأنا كذلك يا سيدي حقاً إنه أمر غريب بشكله ومضمونه.

ـ هذا ما أحسّ به لذا دعوتكم لهذا الاجتماع لنضع أسساً أو خطة أو تصور نستنير به ليكـون عملنا سليماً وقانونياً.

انبرى السيد عيدو قائلاً: سيدي أقترح أن نعلم السلطات العليا بالأمر فنكون نحن بمنأى عن أية مسائلة لاحقاً.

ـ ما هو رأيك أستاذ حميد.

ـ رأي الأستاذ عيدو سليم وأنا موافق عليه.

" وأنا من رأيكم " قالها المستشار وهو يغادر الجلسة قاصداً مكتباً عليه أجهزة هاتف،رفع السماعة وأدار رقماً و هو يراقب مستشاريه من فوق نظارته التي نزلت حتى أرنبة أنفه.

ـ عمت صباحاً سيدي، أرغب في مقابلتكم لأمر هام وضروري و أعتقد أنه خطير.

ـ " ألهذا الحدّ ...؟ " ردّ الشخص من الطرف الآخر.

ـ نعم وقد يكون أعظم.

ـ حسناً تفضّل.

ـ شكراً سيدي.

غادر المستشار القاعة بعد أن طلب من مساعديه أن يبقيا بانتظاره كونه لن يتأخر،تابع المساعدان مشاوراتهما بصوتٍ أقرب للهمس.

أما في القاعة الكبرى حيث بقي السيد وحيداً مفكراً دون أن يرتشف من الكأس التي ضمّتها يداه أيّ قطرة بل اكتفى بأن أخذ يفركها بكفّيه بحركة نصف دائرية ذات اليمين وذات الشمال وسط ذهول الحاجب الذي اختبأ خلف ستارة في آخر القاعة و هو يرصد كل حركة يقوم بها هذا السيد. و هنا استغل الحاجب الفرصة وتسلل خارجاً ليبلغ زوجة السيد بالأمر كونه من الذين يرتادون منزلها لتقديم بعض الخدمات مقابل أجر يحصل عليه.

غاب المستشار برهة من الزمن استحصل خلالها من رئيسه على الموافقة بمتابعة كل المستجدات بالشكل القانوني و حسب الأصول المتبعة وبالسرّية المطلقة لحراجة الموقف بشكل عام ، وعند عودته وجّه كلامه لمساعديه قائلاً:

ـ تفضّلا يا سادة لقد استحصلت على الموافقة المطلوبة، اتبعاني إلى القاعة العامة.

دخل المستشار القاعة ومن خلفه مساعداه اللذان سارا بخطوات مرتبكة ، بادر المستشار السيد بالكلام بعد أن أخذ كلٌّ مكانه المخصص:

ـ عذراً سيدي لتركنا إياك لهذا الوقت أرجو أن لا تكون قد أصبت بالملل.

هزّ السيد رأسه دون كلام.

ـ الآن يا سيدي العزيز نستطيع أن نستمع لكل ما حضرت بمحض إرادتك للإدلاء به.

ـ سيدي الكريم و الفاضل أريد من عدالتكم أن توسعوا لي صدركم الرحب و أن تمنحوني وقتاً كافياً لسرد كامل قصتي.

ـ خذ الوقت الذي تريد.

ـ شكراً سيدي.

" أبدأ حكايتي من بداية حياتي، فمنذ وعيت على هذه الدنيا وجدت أمي التي أفنت عمرها في العمل لتربيتي أنا وأخوتي الثلاثة، إذ كنّا لا نراها إلا عصراً حين تعود من عملها أو بالأحـرى أعمالها المتعددة.من الخدمة في المنازل إلى العمل في الورشات وغيرها حيث كانت تتركنا في رعايـة جدّتي لأمي، كون والدي الذي ارتحم منذ مدة مقطوع من شجرة كما يقال، وصِلاتنا بعائلة والـدي كانت قد قطعت منذ أن قرر والدي الرحيل عن القرية.

أما أسرة أمي فكان حالها كحال معظم الأسر في محيطنا التي تعمل يوماً بيوم والقوت كما يقال قوت لا يموت.

و بموجب ما تقدم أصبح لزاماً عليّ أن أعمل وفي سن مبكرة، بحيث تنقلت بين عدة أعمال من صبي ميكانيكي إلى عامل في ورشة للنجارة

وغيرها، وكنت دائماً أطرد أولاً لصغر سني وثانياً لعدم مقدرتي على التلاؤم مع هذه الأعمال.

جهزت لي أمي بسطة تحوي مواد متعددة مكونة من قطع صغيرة وبعض الحاجيات الرخيصة.

ذات يوم وبينما كنت أحمل تلك البسطة و أدور بين الحواري و الأزقة لفت انتباهي جمهرة من اليافعين جلهم من أقراني، قادني الفضول نحوهم وما إن أصبحت في المقدمة بعد أن جاهدت لشقّ تلك الصفوف حتى شدّني ما كان الصبية يلعبون بـه إذ رأيت شاباً عشرينياً يجلس خلف طاولة صغيرة على سطحها أوراق لعبٍ متسلسلة من الأصغر إلى الأكبر ومن ورائها كان يوجد شيء مخروطي يتدلى منه أنبوب معدني قطره أقل من قطر الفوهة.

وكان ذاك الشاب يصيح ويردد جملاً في البداية لم أفهم مغزاها ولكن ومن خلال مراقبتي لما كان يجري، فهمت كـل شيء وكل ما كـان ينادي به، إذ كان ينادي بصوت عال: "فرنكك بربع" وكـان بعض من الصبية يضعون نقوداً على أوراق اللعب و كان ذاك الشاب يقلب بين يديه نرداً ومن ثم كان يلقي به في فوهة ذاك المخروط ليخرج من الأنبوب ليتدحرج على سطح الطاولة إلى أن يستقر عليها بحيث تربح الورقة المماثلة لنقاط النرد ليحصل الرابح على ربع ليرة بدلاً من كل فرنك كان قـد وضعه.

أذهلتني تلك اللعبة إذ إن الربح فيها و كمـا تبين لي سهل ولا يكلف أيّ جهد، لذا غامرت مبدئياً بفرنك ومن ثم تطورت المغامرة إلى أن خسرت كل ما كنت قد جنيته طيلة يومي. وكانت النتيجة بأن عوقبت من قبل والدتي بشدة ، ولم أزل أذكر صوت حزامها وهو ينزل على قدمي حتى هذه الساعة.

وتكررت تلك المغامرات إذ دخلت ذات مرة جمهرة مماثلة وكان كل قصدي أن أستطلع الأمر و كان في هذه المرة عبارة عن عملية مقامرة بقوارير الكازوز إذ كان أحدهم يمسك تلك الزجاجة و من ثم يبدأ بهزها و بدقها على شيء طري كفردة حذاءٍ أو ما شابه، ومن ثم يثبتها ليقوم آخر بفتحها بسرعة، إن فارت فاز من فتحها وكان ينال المبلغ الذي تمّ الاتفاق عليه و إلا فعليه دفع نفس المبلغ، و كـذلك الأمر غامرت و خسرت و عوقبت.

بقيت هكـذا فترة من الزمن حتى حان المـوعد الـذي سأتقدم به لفحص الشهادة الإعدادية.

تقدمت لذاك الامتحان وبالرغم من كل الظروف التي أحاطت بحياتي تمكنت من الحصول عليها.

وعندها تلقيت الصدمة الكبرى إذ اجتمعت الأسرة و قررت ما يلي: أنه يتوجب علي البحث عن عمل كون والدتي لم تعد قادرة على تحمل أعباء الأسرة بمفردها وعليّ أن أساهم بذلك.

طرحت عليّ عدة أعمال ومن ضمنها الالتحاق بسلك الشرطة، وكونه الأقرب لرغبتي و طموحي كان ذلك. "

التفت المستشار نحو مساعديه وعلامات الضجر أخذت تشق طريقها إلى محياهم ومن ثم قال:

ـ تابع نحن نستمع.

ـ حاضر .

" انتسبت لسلك الشرطة وتخرجت برتبة ضابط صف ومنذ ذلك تقلبت في عدة مجالات كالخدمة في مخافر القرى،

فبينما كنت أقوم بدورية ليلية في مسالك ضيعة تحيط بقرية تقع في أقصى الشمال وإذا بي أشاهـد من بعيد مزرعة واسعة ذات أسوار من القضبان الحديدية و الشبك المعدني وكـان في أعلاها طبقتين من الأسلاك الشائكة.

سألت أقدم العناصر: لمن هذه المزرعة؟

ـ هي لكاظم بك.

ـ ومن يكون كاظم بك هذا.

ـ إنه من أغنياء هذه المنطقة وإنّ أملاكه لا حدود لها.

أثارني الفضول بل دفعني للقيام بزيارته.لذا وفي اليوم التالي وبعد أن أنهيت خدمتي ركبت دراجة نارية كانت مخصصة لذاك المخفر وقصدت منزل كاظم بك الذي احتفى بشكل مثير إذ وعلى الفور أمر بتجهيز مائدة الغداء والتي كانت عامرة بأشهى ما تنتجه تلك المزرعة من لحم دجاج إلى الفواكه العديدة الأصناف وكذلك زينت بأنواع من الحلويات المصنوعة يدوياً والتي لم أذق ألذّ وأشهى منها.

ومن هنا كان التعارف بيني و بين ذاك الرجل الكريم الذي فتح لي أبواب كل منازل القرية وبالأخص الميسورين منهم الذين كانوا لطيبتهم وكرمهم يغدقون علي بالهدايا والعطايا لدرجة أننـي بقيت أحتفظ براتبي الشهري كاملاً وكان ذلك في كل مكان أنتقل إليه إذ كـان الطيبون من البـداية يبرزون كرماً ضاهى إلى حدّ كبير كرم أهل الريف الكرماء بالأصل.

" استمرت الأحوال هكـذا حتى انتقلت إلـى المدينة حيث تم تعييني في مفارز المرور وغيرها من مجالات عمل الشرطة إلى أن انتدبت

للعمل في مجال البحث الجنائي والذي لا يخفى على سيادتكم ما يتعرض وما يمر أمام من يعمل في هذا المجال من حوادث و أحداث و مشاكل، و من هنا كـانت انطلاقتي في طريق الانحراف الذي بدأ بسيطاً ثم ما لبث أن تفاقم وتعاظم إلى أن استوت ساقـأي على هذا الدرب، إذ كـان احتكاكنا بالمجرمين و المنحرفين من كلا الجنسين وما يفرض علينـا وما نتعرض لـه من صنوف الإغراءات المادية على سبيل الرشوة و غيرها مما يفرض علينـا والتي كانت تصل لدرجة تقديم الجسد وهنا تقع الطامة الكبرى إذ ينغمس المرء حتى أذنيه في مستنقع الرذيلة دون أن يحس و فهمكم كفاية"

ـ نحن لا نعرف شيئاً مما تسرده وما تتقدم به لذا يتوجب عليك سرد كل حادثة أو حالة على حـدة و بالتفصيل الممل إن أمكن مع ذكر الأسماء و الأمكنة و التاريخ إن كان ذلك متيسراً وحاضراً فـي ذاكرتكم.

ـ حاضر سألتزم بذلك وسأقص عليكم بعضاً من هذه الحوادث وما تبقى منها فسأدونه ضمن تقريري الخطي لاحقاً.

" في يوم من أيام خدمتي وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل أحضر عناصر الدورية المناوبة فتاتين صغيرتين لا يتجاوز عمر أكبرهما سبعة عشر عاماً وكانت الدورية قد ضبطتهما في زاوية قصيّة معتمة من حديقة عامة وكانتا تمارسان الفاحشة مع بضع شبان في مثل سنّهما، ولصغر أولئك الشبان ورشاقتهم وقدرتهم الجسدية تمكنوا من الفرار عبر سور الحديقة بينما وقعت تلك الفتاتان في قبضة رجال الدورية.

ومن سياق التحقيق معهما تبين أنهما صديقتان وبنفس الوقت زميلتا دراسة وتنحدران من أسر عريقة في هذا البلد و تتمتع بسمعة طيبة وبثراء

واضح من قطع الحلي الذهبية التي تتزينان بها وكذلك كانتا على قدر لا بأس به من الجمال الذي طغت عليه صفة الأرستقراطية."

تغامز المستشار مع مساعديه وكـان لسان حال كـل منهم يقول سنستمع إلى قصة رطبة تضفـي طراوة مع هذه الجلسة الجافة.

انتبه السيد لهم و تابع كلامه مع ابتسامة اخترعتها شفتاه و إن كانت تدل على شيء فإنها تدل على أنه عرف ما كان في فكرهم يجول:

" اقتربت من إحداهن ووضعت يدي على كتفها و كانت مطرقة رفعت رأسها ومثّلت الهدوء وكلمتها بلهجة ناصحة و مؤنبة مع قليل من الشدة مفسراً لهما أنّ ما قامتا به سيجلب الخزي و العار لهما ولأهلهما و غير ذلك فيما يقال في مثل هذه الحالات.شهقتا وبكيت كلٌّ منهما دموعاً حارة.

استدارتا وركعتا أمامي في محاولة منهما تقبيل قدميّ متوسلتين كـي أطوي الموضوع مبديتـين استعدادهما لفعل أي شيء لي بدءاً من خلع حليهما الذهبية حتى تقديم الجسد إن لزم الأمر.

ومن هنا كانت تلك البداية الذميمة إذ طويت الموضوع بعد أن أخذت الحلي الذهبية وقضيت معهما وطراً كان الخطوة الأولى في طريق الزلل وكما هي الخطوة الأولى كـانت هي أصعب الحركات، وبعدها تتالت أمثال تلك الحادثة عشرات المرات "

ـ " أكمل السرد ولكن بالتفصيل " قالها المستشار و علائم خيبة الأمل ظاهرة عليه.

ـ فاتني أن أعلم سيادتكم إذ أننـي و للظروف التـي أجبرتني على ترك ومغادرة مقاعـد الدراسة صممت على أن أتابع دراستي وبشكل

شخصي.وبالفعل اجتزت امتحان الشهادة الثانوية وحصلت عليها بعلامات أهلتني لدخول كلية الحقوق.

ـ نحن نعلم أنكم تحملون إجازة في الحقوق لذا أكمل ما كنت قد بدأت به.

" سيدي الكريم : نحن من نعمل في سلك الشرطة الجنائية كـل أو معظم الانحرافات و التجاوزات و الجرائم وما شابه تقع وتحدث في الليل تحديداً.

ذات ليلـة وبينما كنت منهمكاً بتحضير و مراجعة محاضراتي والتي أقوم باستغلال ليالي مناوباتي لنسخها ونقلها و تصوير الضروري والهام منها أُحضرت إلى مكتبي امرأة ثلاثينية لم يزل على وجهها مسحة من جمال أخفي وراء طلاء فاضح متعدد الألوان وكان يكسو جسدها ثوباً يفضح أكثر ممّا يستر وكانت تعارك العنصر الذي اقتادها بقوة وشراسة وهي تتفوه بألفاظ نابية وتمضغ لبانة بطريقة تثير الاشمئزاز. "

هنا تحركت مقل أعضاء الهيئة فيما بينهم ممنين النفس بشيء ما،وبحركة من يد المستشار تدعوه للمتابعة تابع قائلاً:

" قمت من وراء مكتبي وبدون أية مقدمات صفعتها على خدّها صفعةً تردّد صداها في أرجاء المكان وبصوت زاجر أمرتها أن تهـدأ وتلتزم الأدب وأن تقف جيـداً ثم أعطيت أمراً للعنصر بأن يغادر الغرفة.

فوجئت بردّة فعلي وموقفي الحازم هذا، بصقت العلكة في منديل ورقي سحبته من محفظتها وهي تتابع حركـاتي بعينيها تحسّباً من صفعة أخـرى، أمرتها أن تجلس وتروي لـي قصتها.

بدأت كلامها بالشكوى والسباب والشتيمة على أهلها والمجتمع وعلى من صادفتهم في حياتها و لم تسلم الحكومة من سيلها الجارف هذا.

قلتُ: اخرسي يكفي هذا ابقي ضمن الموضوع.

ـ يا سيدي ما قلته وما سأقوله هو صلب الموضوع وأساسه.

ـ كيف ذلك؟ أوضحي.

ـ سيدي لقد تفتحت عينيّ على هذه الدنيا لأجد نفسي مرمية تحت رحمة زوجة أب ظالمة وأب ضعيف الشخصية أمام زوجته الشرسة التي سعّر غلّها عليّ رضوخ أبي إذ بدأت تكيل لي وتذيقني شتى أنواع العذاب والذلّ مما اضطرني للهرب والعيش مع أمي التي كانت قد تزوجت بعد طلاقها من أبي من رجل سكّير مقامر كان يسلبها ثمرة تعبها وعملها،وعلى الرغم من ذلك رضيت أن أعيش في هذا المنزل الذي على الأقل يبعدني ويجنبني أذى زوجة أبي.

ـ أكملي ولكن بسرعة.

ـ حاضر.

ـ في أحد الأيام حضر زوج أمي وكان في حالة من السّكر جعلته يترنّح في مشيته وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وبينما كنت ذاهبة لأشرب من المطبخ فاجأني ووضع يده على فمي ثم قام بتمزيق قميص نومي المهترئ أصلاً و اغتصبني وكنت وقتها صغيرة لم أتجاوز الخامسة عشرة، لذا سيطر عليّ و هددني بأن يفضح أمري أمام أمي وأعمامي إن تفوهت بكلمة عما حدث.

رضخت صاغرة و عند بزوغ الفجر هربت قاصدة بيت والدي الذي قام بمعاقبتي بدوره على ذهابي إلى بيت أمي والعيش مع زوجها السكّير.

مرّت الأيام والسنون وأصبح عمري حوالي الثامنة عشر عندها تقدّم لخطبتي شاب من طرف خالتي زوجة أبي، وكانت هي من دفعه للقيام والتقدم لطلبه هذا.علّها تتخلص منّي ومن وجودي الذي يكتم أنفاسها كما كانت تقول وتردّد دائماً.

رفضت الفكرة عند طرحها عليّ بحجة أني لا أريد أن أتزوّج حالياً وخصوصاً أنّ ذاك المتقدّم لخطبتي من طرف تلك الخالة القاسية إلا أنّ ما مارسه عليّ والدي وأعمامي من ضغوط مردّها التحريض المستمر من قبل خالتي أجبرني على القبول رغماً عن أنفي.

ـ وهل تمّت عملية الزواج هذه ؟

ـ نعم وكل الإجراءات أُنجزت بأسرع مما يتوقع وحدث الزفاف المنحوس.

ـ شيء جيد ها أنت تخلصت من جور خالتك وأصبح لك رجل وبيت.

ـ نعم ولكن ليت الذي جرى ما كان وما حصل.

ـ لماذا ؟

ـ لأنّ ما اكتشفه زوجي العتيد من فقداني لعذريتي الأمر الذي أحسن استغلاله جعله يهددني بذاك الأمر كلما سنحت له الفرصة أو رفضت له طلب و خصوصاً أني اكتشفت أنه عاطل عن العمل و لا يجيد في هذه الحياة سوى التسكع في الشوارع وارتياد المحلات و الأماكن المشبوهة ليقوم ببعض

الأعمال الوضيعة كأن يتوسط في حلّ بعض الخلافات التي تنشأ بين المقامرين وغيرهم و ذلك بالإضافة لعمله كقواد.

ـ قواد؟

ـ نعم وهذا ما أخذ بفعله معي إذ أخذ يجلب شباناً إلى البيت وكان جلهم من اليافعين ويقيم لهم الولائم العامرة بما لذ وطاب وكنت أستغرب كرمه هذا.

ـ ألم تسأليه عن ذلك ؟

ـ نعم قمت بسؤاله عدة مرات.

ـ وبم كان يجيب؟

ـ أنهم أصدقاؤه ويحب السهر والفرفشة معهم بين الحين والأخر.

ـ ألم تبحثي معه فارق السنّ بينه وبينهم.

ـ نعم وكان يجيب أنهم من الأصدقاء الذين يتعرف عليهم في مكان عمله وهم يلجؤون إليه فـي حلّ بعض المشاكل بين الحين والآخر.

ـ وهل كان جوابه يقنعك.

ـ كنت أمرّر الأمر طالما بقي ضمن حدودنا يتحدث وكان دائماً ضمن حدود المعقول.

ـ وبعد ذلك.

ـ حدث ما لم أكن أتوقعه."

وهنا سأل المستشار الذي تحرك وسوى من جلسته كمن صحا من غفلة داهمته سائلاً:

ـ ما الذي حدث بعد ذلك؟

" قالت لي أنها كانت ترتب لهم جلستهم وتجهزها على أكمل وجه ومن ثم تغـادر نحو غرفتها وتقفل على نفسها الباب وتنام، ولكن وذات ليلة سمعت طرقات علـى باب غرفتها أجفلتها فصاحت: مـن الطارق ؟

سألتها من كان ذاك القادم.

ـ كان زوجي وعلّل قرعه الباب أنه أضاع مفتاحه الخاص وعندما فتحت له دخل الغرفة وأخذ يبحث عن شيء ما إذ دار عدة مرات ضمن الغرفة لكنه لم يمدّ يده على شيء، سألته عمّا يبحث فأجاب: " نامي لا عليك سأجد ما جئت لأجله."

ـ ما الذي حدث أثناء ذلك.

ـ راقبته لفترة غلبني النعاس ونمت ولـم أحسّ إلا بشابين أحدهما أمسك يديّ من خلف السرير قام الثاني بإغلاق فمي وبدأ بتعريتي وقام باغتصابي وأنا أتململ.

ـ ألم تصرخي وتستنجدي؟

ـ صرخت كثيراً ولكن لا حياة لمن تنادي.

ـ أكملي.

ـ تبادلا الأدوار و زوجي و بقية رفاقه في الغرفة المجاورة يتابعون جلستهم و كأنّ شيئاً لم يكن.

ـ ألم تصرخي و تناقشي زوجك بالأمر.

ـ قمت بذلك و وبخته و هدّدته بأن أشكوه لوالدي و أعمامي لكنه قال: " أنت واهمة إنّ هذا الأمر لم يحصل وكل ما تقولينه هدفه واحد هو إبعادي عن أصدقائي ورفاقي."

ـ ألم تشكيه لأحد ؟

ـ نعم قمت بذلك إذ صارحت والدي بالأمر لكنه تجاهلني التجأتُ إلـى خالتي التـي ردت بقولها إنّ قريبها يوزّع الشرف عليّ و على عائلتي و إني مجرد كاذبة و كـل هدفي هـو تشويه سمعتها و سمعة قريبها.

ـ ألم تلجئي إلى والدتك؟

ـ نعم لكن زوجها رفض حتى استقبالي في زيارة قصيرة لذلك رضخت للأمر و تكرّر ما حدث مرّات ومرّات لأنّـي اكتشفت أنه كان يقوم بكل ذاك البذخ مما كان يقدمه له هؤلاء الشبان المستهترون و الذين كان ينحدر جلّهم من أسر غنية و لا همّ لهم سوى تمضية الوقت و اجتراع اللذة بأيّ ثمن و أيّ طريقة و كان ما كان.

ـ لماذا لم تطلبي الطلاق؟

ـ طلبته كثيراً لكنه كان يرفض معتمداً على دعم خالتي له.المهم دعني أكمل أرجوك.

ـ تفضلي أتحفينا.

ـ أحضر زوجي كعادته مجموعة من شبان جدد لم أكن قد التقيتهم من قبل و كـان من بينهم شاب توسّمت فيه الخير مذ رأيته سبحان الله لذلك ميّزته عن البقية إذ رحّبت به وقمت بكل ما عليّ فعله ثم غادرت نحو غرفتي و تركت الباب مواربا و تظاهرت بالنوم."

غيّر المستشار و مساعداه من جلستهم إذ وضع كل منهم يده على خدّه و أسند كوعه إلى الطاولة و هم يحدقون بالسيد منتظرين إتمام الحكاية.

" تابعت حديثها قائلة:و بعد برهة من الزمن كان السكر قد نال خلالها من جميع الشبان إذ تغيرت طريقة كلامهم حيث علا صراخهم و تهريجهم و زاد وتيرة كلامهم النابي و بينما كنت أنصت لكل ما يجري في الغرفة المجاورة لفت انتباهي وقع خطا قادمة نحو غرفتي.رمقت الباب و إذ بي أراه يقف قبالتي و ينظر إليّ من فرجة الباب.تقلبت في الفراش و أثناء ذلك فتحت عينيّ و نظرت إليه و قد سددت الطريق عليه كي لا يهرب و ابتسمت له ثم دعوته للدخول

ـ و هل دخل؟

ـ نعم تقدم كالمُنوَّم إذ دفع الباب برجله و سار حتى صار قبالة السرير.مددت يدي مسلّمة.

مدّ يده فأمسكت بها وسحبته نحوي و أنا أشير إليه بأن يجلس على حافة السرير.جلس و هو يحملق فيّ دون أن ينبس ببنت شفه.

وبعدها ما الذي حدث ؟ " سألتها" ـ و هذا ما كان يودّ القضاة معرفته ـ

سألته إن كان قد سعد بزيارتنا، أردت من ذلك كسر جليد دهشته.

ـ و هل وفّقت بذلك؟

ـ نعم إذ انفرجت أساريره ناطقاً بتلعثم: أيّ بلى إنه في غاية السرور و الأسف لما سببوه من إحراج و تعب.

وهنا سارعت بالردّ: إنه أكثر ما يسعدني هو أن أكون عند حسن ظنّ زوجي و أن يكـون هو و أصدقاؤه و زملاؤه في غاية الراحـة و السرور عندمـا يأتون لزيارتنا.

استغرب حديثي إذ بادرني قائلاً:

ـ نحن و زوجك لسنا بأصدقاء بل نحن نأتي لنمضي سهرة أنس مقابل مبالغ نتفق عليها و إن ما أراه و أسمعه منك أنك إنسانة مغلوبة على أمرها عكس ما كان قد رواه لنا أصدقاءنا الذين زاروكم من قبل.

ـ هل ما تقوله صحيح؟

ـ نعم و قد قبض زوجك المال سلفاً لذا نحن هنا.ألم تكوني تعرفين ذلك؟

ـ كنت أشك في الأمر و خصوصاً هذا الكرم الذي يبديه زوجي لكني لم أكن أعلم أنّ الأمر قد وصل إلى هذا الحد.

ـ ما الذي ستفعلينه بعدما سمعت مني؟

ـ لست أدري و لكن اسمع يا أخي و اسمح لي بأن أناديك بأخي أريد منك أن تسمع قصتي وأن تحكم بنفسك و بعدها يمكنك فعل ما أتيت من أجله.

ـ تفضلي.

سردت عليه قصتي من البداية حتى لحظة وجوده عنـدي، تغير لونه و لوّح برأسه مبدياً أسفاً لمـا سمع و قال:

ـ كنت أسمع أنّ هناك مآسي في مجتمعنا لكـن لم أكن لأتصور أبداً أن أتعرّض لإحداها، اسمعي لـن أخذلك اطلبي أي شيء و إن استطعت تنفيذه قمت بذلك فوراً وبدون تردّد.

قام و لمس خدّي بأنامله و غادر.

ـ خيراً فعلت.هذا ما كان عليك فعله من قبل.

ـ نعم معك حق.

ـ أكملي ما الذي حدث بعد ذلك؟

ـ بعد برهة اختفت الأصوات من الغرفة المجاورة و ما لبث زوجي أن دخل غرفتي و استلقى على السرير و ما لبث أن أطلق العنان لشخيره كي يطرق باب السماء، بقيت ليلتي هذه ساهرة شاردة لم يغمض لي خلالها جفن.تقلبت في فراشي مقلبة كل المسائل في مخيلتي حتى تردّد صـدى المآذن معلنة قدوم نهار جديد.

ـ و هل نفّذ هذا الشاب وعده؟

ـ نعم و بعد أن انتظرته أياماً كثيرة لم يأت خلالها.لن أنكر عليك أنني شككت في أمره و قلت بيني و بين نفسي أنه لحس كلامه و غـادر إلى الأبـد لكن و بعد فترة و بينما كنت أرتب البيت مزيلة أوساخ سهرة الليلة الماضية و إذا بالباب يقرع، التفت إلى ناحية الغرفة التي ينام فيها زوجي لم ألحظ فيها أيـة حركة.

اتجهت نحو الباب و فتحته و إذا بي أجد نفسي وجهاً لوجه مع ذاك الشاب الـذي انتظرته طويلاً، رجوته أن يدخل بعـد أن أنزلت طرف ثوبـي المعلق بحزام ضمّ خصري، مغطية ساقيّ اللتين بانتا للشاب الذي فغر

فمه و هو ينظر إليّ محملقاً بكل اتساع عينيه و قال مستردّاً توازنه و هو يلج الباب :

ـ جئت لأراك و أرتب معك ما يجب علينا فعله.

فرحت كثيراً في سري دون أن أظهر له ذلك، رافقته إلى غرفة الاستقبال و أجلسته ثم غادرت لأعدّ له القهوة و الأفكار تدور في رأسي بسرعة الضوء، و عندما عدت وجدته يجلس شارداً كمن يرتب أفكاره،تنبّه لوجودي قام واقفاً واستلم صينية القهوة من يدي و طلب منّي بعد أن شكرني على القهوة أن أجلس و أسمعه و أن لا أقاطعه حتى ينهي كلامه و بعدها يكون لي كلّ الحرية بأن أقرّر ما أجد فيه مصلحة لي، جلست دون أن أنطق بأي حرف و بحركة من رأسي أبديت الموافقة.

ـ لقد درست وضعك جيّداً و سألت عدداً من أصدقائي الذين أجمعوا على أنّه لا يوجد حل لمشكلتك إلا بالانفصال عن زوجك و البحث عن عملٍ تعيشين من ريعه، وبذلك تُردّ لك كرامتك.

قلت له: معك حقّ لكنّ زوجي آخر شيء يقبل به هو الطلاق لأنّه يعتبرني و حسب ما رأيت مصدر رزقه.

ـ اتركي أمر زوجك لي أنا أقنعه بطريقتي الخاصة و لكن المهم أن تكون الفكرة مناسبة لك.

ـ موافقة طبعاً. و دعوت لـه بالخير عسى أن يكون الفرج قادماً علـى يديه.

شرب قهوته و انتصب ثم اقترب مني حيث كنت أجلس قبالته و انحنى و قبّل رأسي و غادر.دهشت لهذه الحركة المفاجئة إذ بقيت

كالمسحورة برهة من الزمن إلى أن أيقظني صوت زوجي وهو يصيح أين القهوة يا محترمة

ـ و كان هذا لقبي الذي يناديني به منذ صباح ليلة الدخلة ـ

ـ و هل وفى بوعده لك؟

ـ نعم و لكن بعد انتظار وقت طويل نسبياً.

ـ كيف ذاك و لماذا تأخر؟

ـ لا أدري لماذا تأخر لكن المهم أنّه في النهاية حلّ المشكلة بالشكل الذي سأورده لك

ـ تفضلي لنرى دررك.

ـ ذات يوم وبعد مضي أكثر من شهر و أنا أنتظر ذلك الحل المنشود حضر زوجي إلى المنزل فـي فترة ما قبل الظهيرة على غير عادته.

ـ لماذا و هل كان لقدومه و مغادرته مواعيد ثابتة؟

ـ ليس كما ذكرت بالتحديد و لكن لم يكن يأتي بالعادة إلى البيت إلا بعد أن يصطاد شلّة وبالأغلب يكون ذلك مساءً.

ـ هه.. هه.. هكذا إذاً.

ـ نعم.

ـ تابعي و لا تؤاخذينا على المقاطعة.

ـ العفو، استغربت حضوره و سألته: خيراً هذه ليست من عادتك هل حدث معك شيء؟

ردّ قائلاً: لقد جئت لأحدثك بموضوع و أرجو أن تسمعيني جيداً حتى أنهي كلامي و أن تتفهمي ذلك.

قلت: خيراً إن شاء الله.تكلّم إنّي أسمعك.

قال : اسمعي يا بنت الحلال ـ وكانت هذه أول مرّة منذ سنوات أسمعه ينطقها ـ اسمعي ما أقوله لأنّـه هام ـ قالها مكرّراً كلامه ـ

قلت: تكلم يا رجل بدأت تشغل بالي.

ـ يا بنت الحلال لقد عرضت عليّ فرصة سفر إلى خارج البلاد للعمل و يشترط على المتقدم لها أن يكون عازباً أو غير مرتبط

ـ ما هذا العمل الذي يشترط ذلك؟

ـ العمل هناك في مناطق نائية و لا يمكن للمرأة أن تعيش فيها لصعوبة الحياة حيث الصحراء المحرقة و كذلك إمكانية حصول العامل هناك على إجازة صعب جداً و أنا لا أستطيع أن أتركك وحدك هنا لذا و نزولاً عند رغبتك التي طالما طالبتني بها سأُحلّك من كل ارتباط بي و بموجب ذلك أنت ومنذ هذه اللحظة حرة طليقة و ستصلك ورقـة طلاقك في أقرب وقت و سأغادر هـذا المنزل منذ هذه اللحظة.

عنـدما نطق بجملته الأخيرة لم أتمالك نفسي ركضت نحوه و عانقته و أنا أطلق عليه صفات منها أنت ابن حلال.

ـ شيء جيد و لكن ما الذي حدث و حصل لتصيري على ما أنت عليه؟

ـ سأروي لك باقي فصول قصتي.غـادر زوجي البيت نهائياً و بعـد عدّة أيام من الحرية حضر ذلك الشاب الذي كنت أنتظره بكل كياني.

فتحت الباب له و ألقيت بنفسي عليه معانقة شاكرة له فضله لأنني كنت شبه متيقنة أنّه وراء موقف زوجي الأخير هذا. قدته باتجاه غرفة الاستقبال و ما إن دخل حتى ألقى بنفسه على الكنبة مبعداً بين ساقيه فاتحاً ذراعيه مشيراً لي أن أجلس على ركبتيه و بالفعل تقدمت و بـدون أيّ تردّد و جلست على ركبتيه الاثنتين و عانقته.قبلني على رقبتي و مـن ثم على فمي و هو يضمني بشدة استمرّ هكذا لفترة لا بأس بها و من بعدها أرخى يديه قليلاً ثم قال:

ـ الآن قد بدأ الجد.

ـ ماذا.

ـ نعم الآن بدأ الجد.اليوم عصراً سأمرّ لأصطحبك لتتسلّمي عملك الذي وعدتك به.

ـ صحيح حقاً ما تقوله أم أنّك تمازحني.

ـ نعم صحيح لذا تجهّزي و كوني على أهبّة الاستعداد.

ـ شكراً. شكراً قلتها و أنا أعانقه و أقوم بطبع قبلات علـى وجنتيه و فمه.تركته و غادرت لأُعـدّ له شيئاً يشربه.

ـ حلو.سارت الأمور كما تمنيت أخيراً.

ـ نعم أجابت و هي تشير بيدها أنها ستكمل.

أشرت بيدي موحياً أي أكملي.

ـ و أنا في المطبخ و بينما كنت أسكب في كأس مياه غازية لفتتني حركة من خلفي.التفت لأجده واقفاً ورائي مباشرة.أخذ من يدي العبوة و وضعها على الطاولة و من ثم استدار ليعانقني بشغف إذ بـدأ يقبلني و بيده

اليسرى أخذ يعريني و مارس معي على أرض المطبخ و أنا مستسلمة له كلّياً و كان السحر كلّه يتملكني حينها أنهى فعلته و قام ثم غادر دون أن ينبث ببنت شفه."

تنهّد القضاة تنهيدة طويلة إذ أخذ الملل يتسلل إلى سريرتهم و لكن و لأصول اللباقة أشاروا للسيد أن يكمل دون أن يقاطعوه.

ـ سألتها: ما الذي حدث بعد ذلك.

ـ بقيت هكذا مذهولة لفترة من الزمن إلى أن بدأت أستعيد وعيي حيث شعرت بشيء يسري في جسدي أستطيع وصفه بأنه أشبه بتيّار رطب يلفح الجسد في جوٍ حار يريح النفس.

ـ و هل حضر في الموعد المتفق عليه؟

ـ نعم أتى في موعده و غادرنا المنزل بسيارته الفارهة والتي أوحت لي بشيء عن منبته الطبقي.

" وصلنا إلى أمام باب فندق من الفنادق الفاخرة في هذا البلد ركن سيارته و سلّم مفتاحها لمستخدم ركض مذ رآنا نقترب بعد أن فتح له و من ثم لي الباب.دخلنا الفندق عبر بوابة واسعة أفضت إلى بهو واسع فخم أمسك بيدي و هو يقودني باتجاه المصعد الذي أقلّنا إلى الطابق الرابع.و أثناء ذلك انتبه لما أعانيه من قلق و ارتباك لذلك اقترب مني و قبّلني على جبيني قبلة للطمأنينة ابتسمت له دون أن أتكلم.

فتح باب المصعد و كذلك أمسك بيدي و قادني باتجاه مكتب تبدو الفخامة جلية لمن يدخله استقبلنا الشخص الذي كان يشغله بترحاب لا مثيل له مطلِقاً على مرافقي لقب "بك"

جلسنا قبالته حيث بادره رفيقي قائلاً:

ـ هذه السيدة التي حدّثتك عنها و التي تتمتع بصفات ستكتشفها لاحقاً.ثم التفت نحوي و ضغط على يدي مشجعاً.

التفت نحو الموظف و قلت له:سأكون عند حسن ظنّك و ظنّ السيد إن شاء الله.

ابتسم و ضغط على زرّ جانبي،حضر النادل على الفور و طلب منه الموظف مشروباً بارداً تناولناه، و بعد ذلك ضغط على الزرّ مرة ثانية و قال لذاك النادل:

ـ خذ السيدة إلى مكتب التشغيل و هناك سيتولون أمرها.

ـ حاضر أستاذ.أجاب النادل.

و عندها غادر مرافقي المكتب بعد أن ودّع صديقه و قال لي لا تتواني عن الاتصال بي إن احتجت ومدّ يده ليناولني بطاقة حوت أرقام هواتفه، أخذتها وشكرته ثم غادرت برفقة الحاجب.

ـ أكملي لقد أصبتني بالملل.

ـ و نحن كذلك قالها المستشار لأنّ هذا الحديث سمعه كثيراً في مثل الحالات و التي تمر عليه كثيراً وخصوصاً في مثل هذه الأيام لأن أمثال هذه المرأة كثر في هذه المدينة.

ـ خمّنوا ما كان ردّها.

ـ ماذا ردّت؟

ـ قالت لي :لا يوجد لأيّ ممن مررن عليك نفس قصتي.

ـ و من قال ذلك.

ـ أنا أقول و ستكتشف ذلك من خلال سردي لواقع حياتي.

ـ تابعي و لكن بسرعة و باختصار شديد.

ـ حاضر

استلمت عملي و كان كل ما طلب مني أن أستلم جناحاً يضمّ عدة غرف أقوم بتبديل البياضات و أرتبها و أستكمل النواقص إن وجدت.استمرّ عملي هكذا و على هذا المنوال أكثر من شهر بسلامة و يسر و دون أية منغصات أو عوائق و كنت سعيدة جدّاً بذلك و زادت سعادتي أكثر عندما استلمت أول مرتّب ابتعت منه كلّ حاجياتي مستمتعة بالحال الذي صرت إليه.

ـ ممتاز جدّاً ها أنت حققت مرادك.

ـ نعم و لكن اسمع الآتي.

ـ و هل هناك آت؟

ـ نعم اسمع يا سيدي أرجوك.

ـ تفضلي.

ـ بينما كنت أقوم بمهامي المعتادة و التي أصبحت مع مرور هذا الوقت روتينية فوجئت وأنا أدخل إحدى الغرف و بالرغم من تأكدي بأنّ ساكنها قد غادر أنّ أحدهم يظهر من الحمام عارياً تماماً و أخذ يتقدم نحوي في الوقت الذي أخذتني فيه الدهشة كلياً و منعتني من أن آتي بأيّ حركة فكيف النطق.أسرع و أغلق الباب بالمفتاح و من ثم عاد و دفعني على السرير و قام بكل شراسة بتعريتي حاولت الصراخ لكنه وضع يده على فمي

هامساً في أذني مهدّداً و متوعداً بأنّه سيتهمني بأنّي تعمدت الدخول عليه في غرفته دون إذن أثناء تبديل ثيابه و هذه من المخالفات التي تستوجب الطرد مـن العمل لذلك استسلمت له خائفة حتى قضى وطره ثم قام و قصد الحمام ثانية.قمت و لملمت نفسي و غادرت الغرفة بكل ذلّ يمكن أن يحسّ به إنسان.

تابعت عملي ذاك اليوم حتى انتهاء دوامي و عندما حان وقت مغادرتي الفندق و بينما كنت أجتـاز البهو و إذ بي أجده واقفاً أمامي و هو يبادرني قائلاً:

"شيء جميل حبيبتي" قالها بلهجته المحلية. وقفت مستفسرة مـن خلال حركـات قمت بها خشية أن ألفت انتباه مراقب الفندق متجنبة الوقوع بأية مشكلة إضافية.

– ٢٢ –

طلب مني أن أبقى معه برهة من الزمن قال ذلك بكل ظرف و لباقة. وافقت على الفور وخصوصاً أنّه لا يوجد من ينتظرني خارجاً.قادني و هو يمسك بيدي إلى جلسة منعزلة في إحدى زوايا بهو الفندق و جلسنا متقابلين تفصل بيننا طاولـة صغيرة و طلب شيئاً نشربه ثم قال:

ـ اسمعي أرجوك أن تغفري لي تصرّفي هذا اليوم و قد اعترضت طريقك لأعوض عليك أذاي

ـ بسيطة كان خطأي أنا.

ـ لا لم يكن خطأك بل أنا تعمّدت ذلك و معك أنت بالذات.

ـ معي أنا و لماذا؟

ـ هكذا.

ـ كيف و من أعلمك بحضوري في مثل هذا الوقت.

ـ لي مصادري الخاصة.

ـ و من هم؟

ـ هذا سرّ.

ـ إن لم تقل لي من أعلمك بمواعيد عملي سأنسحب.

ـ على مهلك سأقول.

ـ من هو؟

ـ الشخص الذي أعلمني بمواعيد عملك هـو فلان و كان ذاك الشاب الذي توسّط لي للعمل في هـذا الفندق.

ـ هو من زوّدك بكل هذه المعلومات.

ـ نعم فهو صديقي و شريكي هنا و هناك في بلدي لذا اسمعي يا عيني حتى أنهي كلامي.

ـ تفضّل.

ـ اسمعي يا بنت الحلال أريد أن أعرض عليك عرضاً أرجو أن توافقي عليه.

ـ ما هو هذا العرض؟

ـ أريدك أن تسافري معي لتعملي في إحدى شركاتي هناك لقد توسّمت فيك الخير.

ـ كيف و أنا ألتزم بالعمل هذا

ـ لا عليك أنت نحن سنتولى الأمر.

ـ وافقت على الفور لأنها فرصة لا تعوّض.

ـ و هل سافرت فعلاً أم كان ذلك مجرد وعد.

ـ لا لم يكن مجرد وعد بل و خلال فترة وجيزة استكملت كل وثائقي بطريقة حاذقة لأجد نفسي على متن طائرة أقلّتني إلى هناك و أنا أمني النفس بحياة راحة و هناء ورفاه.

استلمت عملي كسكرتيرة شخصية للسيد الفاضل كما كان يطلق عليه هناك بحيث كنت أرتب له لقاءاته و اجتماعاته و كذلك كنت أشرف على كل متعلقاته بل و كنت أرافقه في جولاته التي كان يقوم بها بشكل دوري علـى مشاريع شركاته ضمن البلد وخارجه الأمر الذي أدى لتوطيد علاقته بي إذ أخـذ يتردد إلى مكان سكني بحجة العمل فيأخذ مبتغاه و يغادر.

ـ حتى هناك كنت تقومين بذلك.

ـ هذا ما حدث.

ـ ما الذي جرى بعد ذلك؟

ـ ذات يوم استدعيت على عجل من منزلي إلى مقرّ الشركة و كان قد مضى على وجودي فـي ذاك البلد عدة سنوات. و عند حضوري فوجئت بوجود ذاك الشاب صديقي و الذي غيّر مجرى حياتي منذ أن خلصني من

زوجي و توسط لي في كل الأماكن التي عملت بها بعد ذلك و طيلة تلك الفترة حتى هذه اللحظة.

أسرعت إليه مصافحة معانقة بكل شغف و ودّ.

ـ "هه هي" قالها صاحب الشركة و تابع كلامه: نحن هنا.

ابتعدنا عن بعضنا معتذرين له حيث قال:

ـ حصل خير .

مـن ثم تابـع قائلاً: اليوم أنتم مدعوون إلى المزرعة الخاصة بـي و هناك سنجتمع بأشخاص أريد منك أن تهتمي بهم جميعاً لأننـا سنمهد لإبرام عقود معهم ستدر علينـا جميعاً المال الوفير و الخير الكثير لذا تحضري جيداً لتديري تلك الجلسة بإتقان.

ـ حاضر إن شاء الله سأكون عند حسن ظنكم يا طويل العمر و أرجو مـن الله أن يقدرني علـى أن أبيّض وجهكم الأبيض دائماً.

ـ إن شاء الله.

غادرنا أنا و رفيقي بنفس السيارة حيث أوصلناه إلى الفندق الذي ينزل فيه و من ثم عدت إلـى منزلي و في المساء حضرت سيارة الشركة لتقلني إلى تلك المزرعة القابعة في إحدى ضواحي تلك العاصمة و كان الطريق إليها طويلاً تحفه الرمال و بعض من أشجار النخيل المتفرقة و التي ما إن وصلنا إليها و دخلناها حتى أحسست بأني أدخل جنة بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

تجاوزنا المدخل الذي تحفه الأشجار من الجانبين إلى أن وصلنا مبنى يتوسط تلك الحديقة و دخلناه قاصدين القاعة التي ستقام بها هذه الحفلة و

كان برفقتي السائق الذي بقي معي إلى أن أتممت تفقدي لكل شيء حيث غادر بعد أن تيقن بأنّ لا نواقص تذكر. طلبت خدم هذا المنزل و كانوا جميعاً عمالاً آسيويين نشيطين بارعين بعملهم و كانوا قد رتبوا كل شيء لدرجة أني لم ألحظ أي خطأ.

جلست في ركن أقصى هذه الصالة و طلبت شيئاً أشربه ريثما يحين موعد وصول المدعوين. بقيت هكذا برهة ليست بالقصيرة بعدها بدأت السيارات تفد الواحدة بعد الأخرى و أخذت تفرز شباناً في مقتبل العمر أخذوا يدخلون الصالة الواحد بعد الآخر حتى أصبح عددهم ثمانية.طلب كل منهم مشروبه الخاص وانزوى في ركن طلباً للاختلاء بنفسه.

ـ و بعد ما الذي حصل، اختصري، لقد أصبتني بالصداع.

ـ سآتيك من الآخر.

ـ هيا ماذا تنتظرين إذاً.

ـ بعد أن التمّ شمل شلة السلامة و كان على رأسهم رفيقي و صاحب الشركة بحيث اجتمعوا حول طاولـة مستطيلة تتسع لصنف عدد الموجودين طلب صاحب الشركة أن أجلس بالقرب منـه تبادلنا الأنخاب و بعض الأحاديث العادية و الخالية من أيّ مضمون إذ غلب علـى جلّها عبارات المجاملة والمديح المصطنع و خلال تلك الجلسة أحسست بأني أجلس في إحدى قاعات فندق من فنادق الدرجة الأولى للفخامة الظاهرة على محتويات هذا المنزل.

لعب الشراب لعبته في رؤوس هؤلاء الشبان الذين بدؤوا بالرقص و الغناء متبادلين نعوتاً و ألفاظاً نابية و التي إن دلّت فتدلّ على انحلال واضح

في طريقة تربيتهم، انتصف الليل و أنا بكل كياني أنتظر وصول الوفود المزعومة و التي لم تحضر أبداً.

ـ من الذي حضر؟

ـ لا أحد إطلاقاً لأنّ الجلسة اقتصرت على من حضر.

ـ ماذا فعل هؤلاء بعد ذلك؟

ـ رقص من رقص و سقط على الأرض من سقط من شدة السّكر و نام على كرسيه من نام ومن بقي على الطاولة وكانوا متماسكين بعض الشيء هما صديقي و صاحب الشركة بالإضافة إلى شابين من هؤلاء الشبان و اللذين صعدا إلى الطابق العلوي في المنزل و لسبب أجهله حتى الآن و بعد برهة قادني صديقي و صاحب الشركة إلى الطابق العلوي و هناك بدأت المهزلة إذ وجدت الشابين و قد تعرّيا تماماً من ثيابهما و أخذا يقومان بحركات فاضحة حاولت العودة إلا أنّ الرجلين الكبيرين أمسكا بي و أخذا يعرياني و بنفس الوقت عرّيا نفسيهما حتى أصبحنا جميعاً و كأننا في حمام سباحة أو في إحدى منتجعات العراة في فرنسا إذ لا يستر من أجسادنا شيء و بدأت بعدها الجولات الداعرة إذ تبادل كل الموجودين المواقف تلفّت السيد نحو القضاة ليجد المستشار و قد سدّ فمه بيده و الدهشة تكاد تقضي عليه.

تابع كلامه متجنباً أيّ إحراج قد يصيب به المستشار و مساعديه قائلاً:

ـ قالت لي:

و في النهاية ألبساني ثيابي و أمرا السائق أن يقلّني إلى منزلي، و في اليوم التالي وجدت نفسي على متن طائرة تقلّني إلى بلدي و

كل ما سمح لي بأخذه هو حقيبة حوت بعضاً من ثيابي و بعضاً من حليّ كنت قد اشتريتها من مرتباتي خلال سنوات عملي في هذا البلد بالإضافة إلى ظرف وضع فيه تعويض بسيط و كتب عليه شكراً لقد انتهى كل شيء و ختم بخاتم الشركة.

عدت إلى بيتي الذي كنت قد احتفظت به حيث كنت أرسل بدل إيجاره دائماً و في موعدها المحدد، التزمت البيت لفترة لم أرد خلالها أن أقابل أحداً و في يوم قررت الخروج و كان أول مكان خطر لي أن أزوره هو بيت والدي الذي انقطعت صلاتي به منذ زمن بعيد أي بعد أن تخلّى عنّي عندما التجأت إليه شاكية تصرفات زوجي السابق و كانت الصدمة الكبيرة التي هزّت كياني حيث علمت أنّ والدي قد فارق الحياة منذ فترة و أنّ زوجته قد تزوجت من شخص وافقت صفاته صفاتها وغادرا المدينة نهائياً، وفي اليوم التالي قصدت منزل والدتي و التي كانت صدمتي فيها أكبر وأقسى من صدمتي بوالدي حيث وجدتها و قد أودعت في مشفى للأمراض العقلية و كل ذلك حدث نتيجة لتصرفات زوجها السكّير الذي ختمت حياته على يدها إذ دفعت به من على سور سطح البيت وحدث ذلك عندما كان يحاول أن يجردها من آخر قطعة حلي و أثناء عراكهما تعثّرت قدمه بقطعة أثاث ملقاة على الأرض حيث هوى و كانت النتيجة أنها فقدت عقلها و ها هي تقبع في غياهب ذاك المصحّ.

قمت بزيارتها عدة مرات لم تتعرف خلالها عليّ نهائياً رغم كل محاولاتي معها لذلك صرت أتردد إلى إدارة المصحّ و أقوم بإيداع مبالغ يتم الصرف منها عليها و هذا أقصى ما يمكنني فعله لها

ـ و بعد ذلك كيف تابعت حياتك؟

ـ حبست نفسي في البيت و أخذت أصرف من مدخراتي إلى أن نفذت و من ثم صرت أبيع قطع الحلي خاصتي حتى نفذت هي أيضاً.

ـ لمَ لم تبحثي عن عمل تعيشين منه؟

ـ لقد سعيت كثيراً إلا أنني لم أوفّق إذ إنّ كل ما كان يعرض عليّ من أعمال لم يكن يفي بالغرض.

ـ كيف تدبرت أمرك إذاً؟

ـ عشت الكفاف فترة من الزمن إلى أن حدث ما لم يخطر على بالي.

ـ ما الذي حدث؟

ـ حضر زوجي السابق و بشكل مفاجئ و كان يحمل معه عرضاً مغرياً.

ـ ما هو هذا العرض؟

ـ كان مفاده أن نذهب معاً و نفتح محلاً على هيئة كباريه في بلد مجاور.

ـ و هل وافقت؟

ـ في البداية رفضت كوني لا أملك شيئاً من المال لكنه أقنعني بأنّه قد ادخر مبلغاً لا بأس به من نتاج غربته و أنّه قد يفي بالغرض و سافرنا بعد أن سددت بدل إيجار المنزل لستة شهور لاحقة تحسّباً للطوارئ.

ـ " لا ناصحة ما شاء الله."

ـ يمكن أن تقول ذلك أعذرك، افتتحنا المحل الذي انطلق سريعاً و بدأ ما كان قد مرّ معي سابقاً يتكرر.

ـ ما هو؟

ـ أراد طليقي مني أن أبيع جسدي لمن يدفع أكثر و كان يقبض هو الريع

ـ و هل وافقت معه على ذلك.

ـ لم أجاريه أبداً لأنني قررت ألا أرضخ له نهائياً.

ـ برافو هذا ما يتوجب عليك فعله

ـ نعم صحيح لكن لكل امرئ طاقة احتمال.

ـ صحيح لكن يجب على الشخص أن يعرف ما يريد و يصمم عليه.

ـ هـذا ما حصل معي لذا عدت خالية الوفاض من هذه التجربة و التي كـانت مريرة نسبياً مقارنة بالتجارب السابقة التي مررت بها .

ـ أكملي و لكن باختصار كما سلف و قلت.

ـ نعم، و أنا في محطة الانتظار على الحدود اقترب مني شخص وجهه مألوف بالنسبة لـي بالتدقيق تذكرته كان ممن ارتادوا منزلنا سابقاً أيام سهرات زوجي المشوقة و قـّدم نفسه بدماثة مصطنعة قائلاً:

ـ أين أنت أيتها الفاتنة لقد بحثت عنك طويلاً و لم أعثر لك على أثر أين كنت مختفية طيلة هذه الفترة؟

ـ كنت مسافرة و قد عدت منذ مدة وجيزة. خيراً إن شاء الله.

ـ خير، خير إن شاء الله أحمل لك فرصة عمل إن وافقت عليها تكونين محظوظة.

ـ فرصة عمل.

ـ نعم فرصة عمل لا تعوّض و تناسبك تماماً.

ـ ما هي هذه الفرصة بل ما هو هذا العمل.

ـ إنّي أعمل في مطعم فاخر يقدّم بالإضافة للطعام و الشراب خدمات إضافية و برامج فنية كوصلات رقص و ما يتبعها.

ـ و ما هي علاقتي بالأمر بل ما هو دوري؟

ـ لك كـل العلاقة و هـل تستقلين بنفسك أنت تمتلكين مـن المواهب بحيث تؤهلك لتصبحي نجمـة استعراضية في أقصر وقت.

ـ رقص ..! و ما أدراك أني أجيد هذا العمل؟

ـ أنت تختبئين خلف ثيابك أنت فنانة بالفطرة.

ـ أنا .. !؟

ـ نعم أنت و لا أكون مغالياً بأنّك أفضل بكثير ممن التقيتهم سابقاً.

ـ أتتكلم بجدية أم أنك .....

ـ أنا، ما عاذ اللّه لم أنطق إلا بالحقيقة.

ـ ابتعد يا رجل و اتركني بحالي لأنني سئمت التجارب و الصفعات المتتالية على مؤخرة رأسي.

ـ لا يا ابنة الناس سأقدمك لإدارة المطعم على أنك فنانة رقص شرقي أحضرتك من بلـد مجاور. وصدقيني سيكونون في غاية السرور و الامتنان لي و ستسعدين أنت بالعمل معنا هناك.

ـ لمَ أنت واثق هكذا؟

ـ لأنهم أرسلوني لإحضار راقصة من هناك و القدر وضعك فـي طريقي لأبيّض وجهي أمـام ربّ عملي و سأكون لك من الشاكرين إن قبلت.

ـ و هل وافقت؟

ـ نعم إذ لا مجال مفتوح أمامي سوى هذا العرض الذي أتى عـن طريق الصدفة البحتة، باشرت عملي كراقصة لي نمرة في هذا المطعم.

ـ جيد ها أنت حصلت على عمل دائم يكفل عيشك .ما الذي حصل لتصيري هكذا؟

ـ مهلاً عليّ سيدي لم تزل قصتي في بداياتها.

ـ ماذا ؟ في بداياتها.

ـ نعم في بداياتها لأنّ الآتي كان أعظم مما مرّ سابقاً.

ـ أعظم .. !؟

ـ نعم أعظم.

ـ هاتي فسري ذلك.

ـ بعد أن بدأت عملي بفترة من الزمن حصدت شهرة لا بأس بها أدّت إلى تهافت العروض عليّ من كل حدب وصوب.

ـ عروض مثل ماذا؟

ـ كل شيء يمكن أن يخطر ببالك إذ وصلت الحال بأحدهم أن يضع ثروته تحت قدميّ.

ـ ممتاز أصبحت غنية إذاً.

ـ بالعكس وا حسرتاه لأنّ كلاً ممن تهافت عليّ و وصل لدرجة إذلال نفسه كي أرضى، مـا إن يأخذ وطره منّي كان ينسى كل وعوده و يغادر تاركاً مبلغاً عند طرف السرير.

ـ ما هذا يا ابنة الناس إني أجد أنّ كل الظروف تعاكسك دائماً.

ـ نعم تستطيع قول ذلك.

ـ أكملي

ـ استمرّت أيامي على هذا المنوال و كنت راضية نسبياً كون هذا العمل أمّن لي ضمانة مقبولة لحياة عادية تقريباً.

ـ جميل أن يرضى الإنسان بالمتاح أمامه.

ـ نعم صحيح و لكنّ الظروف لا تترك الإنسان يعيش على هواه.

ـ لماذا ما الذي استجدّ بعد ذلك؟

ـ ذات يوم استدعيت قبل موعد وصلتي بفترة طويلة لمقابلة مدير المطعم و كان ذاك الاستدعاء على عجل حضرت و كنت قلقة من أمر خافٍ عليّ.وما إن دخلت حتى وجدت هناك رجلاً كبير في السن تبدو على ملامحه علامات الوقار و الجّاه.عرّفني عليه صاحب المطعم على أنّه زاهر بك و يرغب في أن أحيي له حفلة خاصة في الفيلا التي كان يقطنها و أنّه سوف يلبّي كل طلباتي أيّاً كانت.

ـ وهل رضختِ؟

ـ نعم لقد قبلت فوراً لأني اعتبرتها فرصة ذهبية أستطيع أن أحصل منها على مبلغ جيد وبنفس الوقت أدخل حياة هذا الوقور و أتعرف على كل متعلقاتها.

ـ أصبحت باحثة اجتماعية.

ـ ليس إلى هذا الحد لكنّ الفضول دفعني لذلك.

ـ حسناً تابعي ما الذي كان ينتظرك هناك.

ـ عند ذاك المساء حضرت سيارة من قبله أقلّتني إلى حيث تكون تلك الفيلا الملعونة و عند وصولي كان باستقبالي شخصياً و هو يرتدي الرّوب رافقني إلى الصالة و طلب من الخدم إعداد مشروب يريح أعصابنا كما قال قبل بدء الحفلة المزعومة لأنّ المدعوين لم يصلوا بعد.

ـ و هل كان هناك مدعوون أم كانت هذه الحفلة كحفلة ربّ عملك السابق؟

ـ انتظرت طويلاً قدوم الضيوف المزعومين و لكن دون جدوى و كأنّ الأرض ابتلعتهم كما يقول المثل،و البيك يراوغ و يلفّ و يدور مبدلاً مواضيع أحاديثه و كأنّه يتقصّد تمرير الوقت كي ينقضي موعد وصلتي في المطعم و ذلك ليضمن بقائي في كنفه تلك الليلة.

ـ و هل حدث ما توقعته فعلاً؟

ـ نعم صحيح لقد كان ما توقعت إذ و نتيجةً لإلحاحي الشديد و طلبي إليه أن يعتقني أو يقول ما هـو مأربه من هذه الدعوة المشكوك بأمرها و تلك الحفاوة و ذلك الكرم الذي يبديه تجاهي و أخيراً نطق قائلاً:

ـ اجلسي يا عزيزتي و استمعي لما سأقوله و افهميه تمام الفهم لأنّـه هام و شخصيّ و لـه علاقـة بكرامتي شخصياً.

ـ ألهذا الحدّ؟

ـ نعم و أكثر.

ـ تفضّل فكلّي آذان صاغية.

ـ أنا رجل ثريّ جداً ليس لأملاكي حدود هنا في هذا البلد و في بلدان عدة حيث شركاتي و مصالحي، و كان لديّ زوجة رائعة ملأت عليّ حياتي إلى أن توفّاها اللّه و تركتني وحيداً و خصوصاً بعد أن سافر ولديّ كلٌّ إلى بلد شقّ طريقه حيث استقرّ و بتّ أعاني الوحدة و الوحدة قاتلة كما يقال.

ـ ما هو دوري حيال ذلك؟

ـ بإمكانك مساعدتي.

ـ أنا كيف!و ما الذي في استطاعتي فعله لأقوم به لك بلا تردد و بدون أيّ مقابل.

ـ حسناً وفرت عليّ جهداً كبيراً لإقناعك بما سأعرضه عليك بكلامك هذا.

ـ تفضل قل ما عندك و ثق تماماً بأني سأبذل قصارى جهدي لألبّي كل رغباتك إن قدرت على ذلك.

ـ حسناً جداً: سأعرض عليك عرضاً و أرجو أن توافقي عليه لأني أجد فيه مصلحة لك و لي في آن واحد.

ـ هات ما عندك.

ـ أرجو و بدون أية مقدمات أن تقبلي الزواج بي و لكن بشكل عرفي لأني لا أستطيع إشهار ذلك حالياً لظروف كثيرة قاهرة تمنعني من ذلك.

ـ و هل قبلت بهذا الشرط؟

ـ نعم قبلت دون تردد و عندها قام بوضع مبلغ كبير من المال في إحدى البنوك كضمان لمستقبلي.

ـ تمام ها أنت مجدداً يبتسم لك الحظ و تحظين بالاستقرار.

ـ نعم و انتقلت للعيش في كنف هذا الرجل الكريم الذي أنساني كل متاعب حياتي حتى التقيته و لكنّ القدر كان لي بالمرصاد.

ـ كيف و ما الذي حدث مجدداً لك؟

ـ ذات يوم نام البيك و لم يستيقظ و من جديد بدأت المشاكل بالتساقط على رأسي كحبات البرد في شهر الزمهرير.

ـ لماذا...ألم تؤمّني حياتك بحساب كبير في البنك؟

ـ هذا ما كنت أتوقعه.

ـ ما كنت تتوقعينه....ألم تقولي بأنّ البيك وضع في حسابك مبلغاً محترماً من المال تحسّباً لظرف كهذا الظرف.

ـ نعم هذا ما أفهمني إيّاه البيك و محاميه و لفرحتي بالحياة الجديدة تقاعست عن التحقق من ذلك.

ـ ما الذي حدث بعد وفاة زوجك؟

ـ بعد فترة من الزمن حضر ولداه و استدعياني من مسكني كوني غادرت الفيلا بعد أن أنهيت مراسم العزاء.

اجتمعنا و كان من بين الحضور شخصٌ عرفته فوراً هو المحامي الذي قام بتنسيق و ترتيب ذلك الزواج العرفي

.

ـ لمَ استدعيت إلى هذا الاجتماع؟

ـ استدعوني لإبلاغي بأمور كانت خافية عليّ تماماً.

ـ مثل ماذا؟

ـ أبرز المحامي ورقة لا أعرف متى و كيف وضعت بصمتي عليها.

ـ ما الذي تضمنته تلك الورقة؟

ـ قال لي هذه وثيقة تثبت بأني أحتفظ للبيك الراحل بمبلغ و قدره كذا كأمانة لولديه حتى يعودا من السفر.

ـ دهشت لما سمعت و قلت لم أوقّع و أكتب أية وثيقة و لم أضع بصمتي على أية ورقة مماثلة من قبل و هذه الورقة بالتأكيد مزوّرة.

ـ و هل أنت بالفعل لم توقعي أية وثيقة من قبل.

ـ نعم أنا متأكدة من ذلك.

ـ و ما كان ردّ المحامي؟

ـ قال إنّ هذه الوثيقة صحيحة تماماً و أبرز وثيقة من المعمل الجنائي تثبت أنّ البصمة الموجودة على الورقة هي بصمتي من السجل المدني في بلدي.

ـ و ما كان تصرّفك حيال ذلك؟

ـ أذعنت و سألت ما هو المطلوب مني.

ـ عليك ردّ المبلغ المذكور بالإضافة للحلي و المجوهرات التي سرقتها من الفيلا قبل أن أغادر.

ـ و هل سرقت تلك المجوهرات؟

ـ بالطبع لم أفعل بل قام بهذه الحركة للضغط عليّ كي ألبّي كل طلباته و طلبات موكّليه.

ـ ماذا حدث عند ذلك؟

ـ عند سماعي بنبأ المجوهرات و التهمة التي وجهت إلي زوراً و بهتاناً أغمي عليّ ولم أستفق إلا و أنا في غرفة متواضعة من غرف مشفى حكومي.سألت الممرضات:

ـ من أحضرني إلى هنا؟

ـ ردّوا: أحضرك المحامي فلان و إنّه سيعود للاطمئنان عليك لاحقاً.

ـ و هل حضر بالفعل لزيارتك؟

ـ نعم حضر صبيحة اليوم التالي و كان برفقته شخص قدّمه لي على أنّه كاتب العدل.سألته عن سبب إحضاره إلى المشفى قال:

ـ أنت متعبة جداً و تحتاجين لفترة نقاهة لذا ما عليك سوى التوقيع أمامه على منحي وكالة مـن قبلك لأتمّم الإجراءات واعداً إن نفذت ذلك بأن ننهي القضية و نحل مشكلة الحلي المسروقة و بذلك ننتهي من المشكلة تماماً.

ـ و هل منحتيه تلك الوكالة؟

ـ نعم رضخت لأنني إن لم أوافق فسيكون مصيري السجن بتهمة السرقة؟

ـ وهل نفّذ وعده وبالأخص فيما يتعلّق بتهمة السّرقة؟

ـ نعم لقد قام بشطب تلك القضية، و بعد عدة أيام عدت إلى منزلي ربي كما خلقتني.

ـ ماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ منذ تلك الحادثة صرت أتردد إلى المحلات العامة أعرض جسدي لمن يدفع إلى أن وقعت في براثن ذئب بشري أقنعني بأنّه سيوفّر لي الحماية و يؤمن الزبائن.

ـ و هل وافقت معه؟

ـ نعم و صرت كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

ـ ألم تتعلمي من تجاربك السابقة! مالك تنتقلين من حفرة إلى هاوية.

ـ هذا ما حدث معي بالضبط.

ـ ما الذي فعله معك هذا القواد؟

ـ بدأ يجردني من كل مبلغ أحصل عليه.

ـ و لمَ تعطيه بدل أتعابك؟

ـ كنت أعطيه كل شيء مؤملة النفس بأن يفتح الله لي باباً يخرجني من هذه الحفرة الآسنة.

ـ أكملي هل من جديد؟

ـ نعم في أحد الأيام و بينما كنت آخذ قسطاً من الراحة حضر ذاك القواد و طلب مني أن أتجهّز على عجل. سألت:

ـ خيراً ما وراءك؟

ـ هناك صيد دسم. و هذا الوصف يطلق على الزبائن الأثرياء و هذه فرصة العمر كما قال

ـ هل ذهبت معه؟

ـ و هل أستطيع أن أرفض؟

ـ لمَ لا تستطيعين؟

ـ لأنّه كان سيحيل حياتي جحيماً بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

المهم أننـا غادرنا المنزل باتجاه فيلا مستأجرة و كانت تقبع في رحاب ضاحية هادئة.دخلنا بهو تلك الفيلا لنجد شخصاً ستينياً يلبس جلابية و يعتمر العقال.

رحب بنا جيداً و طلب لنا شيئاً نشربه و أثناء ذلك اعتذر القواد وغـادر بحجة أنّ لديه عمل سيقوم بإنجازه وبعدها يعود.

رافق المضيف ذاك القواد إلى باب الفيلا وعاد ليصطحبني عبر المصعد إلى الطابق العلوي حيث وعلى الفور بدأت جولات جنسٍ إن نمّت عن شيء فإنّها تنمّ عن عقدٍ متأصّلة في نفس وعقل ممارسها وعن طبيعة متناقضة يعيشها أمثال هذا الثري في بلاده وأنّ كلّ تلك الحركات ما هي إلا تنفيثاً لتلك التراكمات وحلحلتها.

نام الرّجل من شدّة الإعياء وكذلك أنا ولم أستيقظ إلا ورجال الأمن يملؤون الفيلا وكذلك الغرفة التي ضمتني و الرجل الذي كان يصيح و يلطم وجهه و يندب نقوده و جواهره التي سرقت أثناء نومنا.

ـ من سرق هذا السائح؟

ـ لا أعرف لأني كنت نائمة كما قلت لك و لم أستفق إلا عندما حضر رجالكم.

ـ أين ذهب شريكك؟

ـ لا أعرف.

ـ لا تعرفين أم أنك رتبت كل شيء معه؟

ـ صدقني ما أقوله لك هو الحقيقة.

ـ طيب سأجاريك أجيبي على سؤالي:

ـ تفضل.

ـ ما اسم شريكك؟

ـ لا أعرف اسمه الحقيقي و ما أعرف عنه أنه أبو الوفا.هذا ما كان يناديه به أمثاله و أقرانـه مـن القوادين.

و عندها قامت من على كرسيها و انحنت نحوي ضارعة متوسلة لي كي أنقذها من هذه الورطة التي وضعت فيها رغم أنفها و أنها ستلبّي كل متطلباتي أيّاً كانت مادية أو معنوية.

ـ ألم تحرر ضبطاً رسمياً في كل كلامها قالها المستشار حتى هذا الوقت؟

ـ لا لم أحرر شيء بل فضلت الاستماع إليها و بموجب ذلك أقرر.

ـ و بالتأكيد لم تحرر ذاك الضبط.

ـ لا سيدي لقد حررت ضبطاً لكن لما استجدّ لاحقاً.

ـ و هل هناك من مستجدات بعد كل ما تقدم؟

ـ نعم هناك الكثير امنحني فرصة و سأسرد لكم ما حدث.

ـ تفضل لقد ملأت وقتنا لهذا اليوم ما شاء الله.

ـ هزّ السيد رأسه و تابع قائلاً:

ـ صفي لي قوّادك هذا.أعطت مواصفات عامة تنطبق على الغالبية العظمى من هؤلاء الرجال.قلت:

ـ صفيه أكثر طريقة كلامه نبرة صوته بنيته الجسدية و هل هناك علائم فارقة واضحة تميزه عن غيره.

دققت كثيراً ثم ما لبثت أن أعطت صفة تنطبق على أحد هؤلاء المشبوهين و لكن و للتأكد من شخص ذاك القواد فتحت خزانة جانب مكتبي و أحضرت ملفاً حوى صور للعديد من هؤلاء المنحرفين

ـ و هل تعرفت عليه بسهولة؟

ـ نعم ولمجرد أن رأيت صورته في الملف.

ـ و من كان ذاك القواد؟

ـ كان من أكثر المشبوهين المطلوب القبض عليهم بسبب أعمال النصب و الاحتيال و السرقة التي سبق و طورد من أجلها.

عندها ضغط على زر الجرس ليحضر أحد العناصر و يكلفه بالمهمة حيث عممت صورته على جميع مفارز الأمن و تحديداً المرابطة على المنافذ الرسمية.

ـ و هل ألقيتم القبض عليه؟

ـ نعم و بعد بضع ساعات فقط ضبط و هو يحاول التسلل عبر منفذ غير شرعي عبر الجبال و كانت قد ضبطت بحوزته المسروقات بما فيها المجوهرات و الأموال التي قام بسرقتها من فيلا ذاك السائح.

ـ ما الإجراءات التي اتخذتها حيال ذلك؟

ـ نتيجة لتوسلاتها قمت بالتوسط لها مع ذاك السائح كي يسحب شكواه ضدها.

ـ و هل قبل؟

ـ نعم و خصوصاً عندما رأى ماله و مجوهراته أمامه.

ـ كيف تصرفت معها؟

ـ استوليت على بعض من حليّها الذهبية و أصبحت من محظياتي.

ـ يا سلام شيء يدعو للفخر بل يرفع الرأس و تلفّت إلى مساعديه الذين هزّوا رؤوسهم استنكاراً دون كلام.

ـ هل هناك شيء تريد إضافته فيما يتعلق بهذا الموضوع؟

ـ كلا لأنه انتهى عند هذا الحد.

ـ هل من شيء آخر؟

ـ نعم.ذات يوم و أنا أتبع بعض القضايا في مكتبي دخل عليّ رجال دورية كانوا قد لبّوا نداء استغاثة من قبل أحد المواطنين.و كانوا يقتادون رجلاً ملتحياً أشيب الشعر و اللحية و من النظرة الأولى قدّرت عمره بحوالي الخامسة و الخمسين من عمره و كانت علائم الفزع ظاهرة عليه إذ

كان يتمتم بالأدعية و بعض من أقوال الأئمة وكذلك بعض الأجزاء من الآيات الكريمة على طريقة هؤلاء المشعوذين و الذين هم كثر جداً في مجتمعنا.

كونهم يجدون التربة الصالحة المسهلة لنشاطهم حيث قلّة التعليم وكذلك الوعي و كذلك سيطرة رجال الدين الذين يسهّلون عمل هؤلاء المشعوذين الدجّالين و الذين وفي كثير من الأحيان تربطهم بهم علاقات مادية من أنواع عدة.طلبت من عناصر الدورية فكّ قيده والمغادرة بعد أن استلمت محضر ضبط كانوا قد حرّروه مكان وقوع الحادثة.سألته:

ـ ما هي قصتك؟

ـ يا بني ليست لي قصة.

ـ لم قام ذاك الرجل إذاً بضربك و بهذه الشراسة.

ـ لم أفعل له شيئاً.

ـ هكذا قام بالاعتداء عليك حبّاً بالمشاكل.

ـ كلا لقد حضرت زوجته ذات يوم إلى داري الذي كانت ترتاده نساء كثر غيرها و لحاجات عدة كنت أقضيها بما يقدرني الله عليه.

ـ ما الذي جاءت من أجله؟

ـ قالت أنها عاقر و رغم مضي عشر سنوات على زواجها فإنها لم تنجب و أنّ زوجها سيطلقها و يتزوج عليها.

ـ ما علاقتك بالأمر؟

ـ جاءت لطلب المساعدة عسى و بواسطتي أساعدها على الإنجاب.

ـ و هل تستطيع ذلك؟

ـ قمت ببعض الإجراءات و الطقوس و كتابة الأحجبة و كانت تصيب فـي بعض الأحيان . ومـا إن اكتشف ذاك الرجل ما قمت بفعله حتى هاج و ثار و هجم عليّ و ضربني و لولا وجود بعض الشبان من أقاربي الذين قاموا بصدّه عني بل ضربوه ضرباً مبرحاً أوجب نقله إلى المشفى حيث يعالج هناك.

ـ ما الذي اكتشفه ذاك الرجل؟

ـ لقد قمت بكتابة بعضٍ من الأدعية و بعضاً من الطلاسم على بطن تلك السيدة.

ـ على بطنها ..؟ بطنها ..!

ـ نعم على بطنها.

ـ على جلد بطنها بالذات و ليس على ثيابها؟

ـ لا على جلد بطنها بالذات.

ـ يا رجل و كيف تجرأت على فعل ذلك ألم تستحِ ،ألم يردعك عقلك و عمرك ودينك.

ـ لا لأنّ ما قمت به فيه خير لها و لزوجها و أنا لم أسئ لأحد.

ـ و تبرّر فعلتك ببساطة ألا تدري أنّ ما قمت به عمل يستوجب العقوبة و السجن.

ـ لا لم أكن أعرف ذلك إذ أنني قمت بذات العمل عشرات المرات.

ـ حظك كبير إذ لم يكتشف ذلك سابقاً.

ـ ربما.

وهنا انبرى المستشار قائلاً:

ـ ما الذي فعلته مع ذاك الرجل؟

ـ لقد توسط له بعض من أهل الخير إذ قاموا بمنحي مبلغاً كبيراً من المال حيث سهّلت عملية المصالحة بينه وبين زوج تلك المرأة و أنهيت تلك المشكلة بأن قام الزوج بسحب شكواه و كذلك قام ذاك الشيخ بالاعتذار له مع وعد بعدم تكرار ذلك.

ـ هاتان عينتان من عمليات الاستغلال الوظيفي و هما تكفيان و إن كان هناك شيء جديد أرجو ضمّه لتقرير ستقوم بتضمينه كل التفاصيل التي لم تسمح لنا الظروف بسماعها شفهياً.

ـ حاضر سأقوم بذلك.

ـ هات أسرد لنا من فضلك بعضاً من عمليات الاختلاس التي سبق و قلت أنها كثيرة.

وهنا حدثت ضوضاء تردد صداها إلـى القاعة التي تتمّ بها جلسة الاعتراف هـذه.أمر المستشار الحاجب بأن يستطلع الأمر و ينقل له حقيقة ما يحصل خارجاً.

غادر الحاجب و ما لبث أن عاد مسرعاً و توجه نحو المستشار هامساً في أذنه.وهم في هذه الحالة فتح الباب لتدخل مجموعة مـن الناس تتقدمهم امرأة خمسينية تعلو ملامحها أبّهة واضحة و كانت تسير بصدرٍ زيّن بأثمن الأحجار الكريمة و كانت تسير من خلفها فتاتان لا تقلّ زينتهما عن زينة تلك السيدة الكبيرة.

صاح المستشار موبّخاً: ما هذا و هل أنتم في سوق خضار كيف تقتحمون مقرّاً حكومياً بهذا الشكل ألا تعرفون بأنّ لهذا المكان حرمته و احترامه. و هنا صاحت السيدة الكبيرة قائلة:

ـ سيدي الكريم أنا زوجة هذا الرجل الواقف أمامكم و أرجو السماح لي بالدخول.

عندها أشار المستشار للحراس بأن يسمحوا لهم بالدخول و هـو يطرف السيد بعينه استشفافاً لردّة فعله حيث وجده مطرقاً وهو يمسك رأسه بكلتا يديه.

ـ تفضلي يا سيدتي و اجلسي هناك و لكن عليك ألا تتكلمي نهائياً إلا إذا طلبت منك ذلك.

ـ لا سيدي أرجوك دعني أتكلم لأنّ الأمر هام.

ـ هاتي ما عندك.

ـ سيدي إنّ زوجي الواقف أمامكم يعاني و منذ فترة من الزمن من ضغوط نفسية أدّت لإرهاق أعصابه الأمر الذي دفعه ليقف وقفته أمامكم فهو يريد أن يدمر نفسه و يدمرنا معه لذا أرجوك أن لا تسمع له و لا تصدقه في أيّ شيء يدلي به لأني أصبحت فـي غاية الاقتناع أنه يعاني مـن اضطراب ربما يكون قد أثّر على عقله.

ـ مهلاً سيدتي اجلسي أرجوك و دعينا نتبيّن ذلك بأنفسنا.

اعترضت بشدة عندها أمر المستشار بإخراج السيدة و مرافقيها من القاعة على أن يحضرن لاحقاً و برفقة محام يتولى كل الإجراءات و يباشر كل شيء و كل مستجد في حينه.

حدث كـل ذلك و السيد لم يزل مطرقاً و هـو يمسك رأسه بيديه دون أن تصدر عنه أيـة كلمة.

قال المستشار بعد أن غادر الجميع القاعة موجهاً كلامه للسيد:

ـ هات أيها السيد أخبرنا عن تفاصيل ما كنت قد سألتك عنه.

ـ حاضر.

تابع حديثه و هو مطرق:

ـ بعد خدمة عدة سنوات في مجال الشرطة حصلت علـى إجازة فـي الحقوق و عندها تقدّمت بطلب لتعديل وضعي،

عرض عليّ عدة عروض منها متابعة عملي في سلك الشرطة علـى أن أمرّ بدورة تدريبية أتخرّج بعدها ضابطاً لكني رفضت لذا توجب عليّ تقديم استقالتي من سلك الشرطة و مـن بعدها تمّ تعييني في إحدى وزارات الدولة، وكان من حسن حظي أم من سوئه لا أدري أنّـي عيّنت مديراً لدائرة العقود و هناك و كما يقال وضعت على تلّ مـن النقود أستطيع أن أغرف منها متى وكيفما أشاء و أريد و بالشكل و الغطاء القانونيين.

ـ أكرر ما طلبته منك سابقاً تكلم في قضايا محددة و ليس بالعموميات.

ـ نعم، كنت أدرس كل المشاريع التي تقدم إلى دائرتي و خصوصاً تلك التي يتوجب تنفيذها إبرام عقود خارجية لتوريـد المواد الأولية و المعدات اللازمة و غيرها مـن حاجيات ضرورية للإقلاع بتلك المشاريع.

ـ تكلم عن قضية واحدة بالتفصيل مبدئياً.

ـ نعم سأبدأ بالمشروع القائم حالياً و الذي أصبح منشأة تمدّ قطاعاً هاماً في مجتمعنا بالضروري من حاجياته، و للثقة التي حزت عليها و الرضا عني

من قبل رؤسائي تمّ ترشيحي للسفر كرئيس للوفد و كانت هذه الرحلة باكورة إنجازاتي و التي تتالت لاحقاً و كان من حصيلتها مئات الآلاف من الدولارات التي أودعت في حساب فتح لي حديثاً في بنوك دولة مجاورة.

ـ و ما كـان تأثير ذلك على أداء تلك المنشأة و التي و حسب ما وصفتها هامة لأنها و كما تعلم تقدم مادة أساسية و ضرورية لقطاع كبير في المجتمع.

ـ كـان تأثيره سلبياً بعض الشيء كـون ما تمّ التعاقد عليه مـن آلات و مواد أولية لـم يكن ضمن المواصفات المطلوبة مئة بالمئة لكنها تعمل و خط إنتاجها يقدم تلك السلعة و تحقق ربحاً لا بأس به لاقتصاد الدولة.

مطّ المستشار شفته و هزّ رأسه و هو يتلفت إلى معاونيه ثم قال:

ـ أكمل من فضلك.

ـ توالت تلك السفرات و المهمات و كذلك العقود المبرمة و كان من نتيجة جلها أرصدة إضافية تضاف إلى مدخراتي التي أخذت تتراكم و تزداد سمنة و علواً.

ـ ألم تلفت انتباه أحد من حولك؟

ـ لا لأني كنت و بأسلوبي الخاص أكم أفواه مرؤوسيّ و أرضي رؤسائي بأن أغرقتهم بالهدايا والهبات لهم و لأفراد أسرهم و بالأخص زوجاتهم فبذلك أضمن كـل تقاريرهم التي يقدمونها للقيادة و التي كانت تصب في مصلحتي مما أدى لرفع مكانتي عند القيادة الأمر الذي أدى إلى نقلي و ترقيتي إلى منصب آخـر و مهام أخرى و فـي كل مرحلة أو مكان أو مهمة

كنت أكلّف بها كانت سمعتي تكبر كأرصدتي و كل ذلك بفضل أتباع سخرتهم لتلميع صورتي أمام القيادة و ذلك عبر تقاريرهم الدورية للقيادة.

ـ هل ستذكر بعض من تلك المهمات؟

ـ نعم هناك العديد منها و لكن سأكتفي ببعض منها.

ـ هات أتحفنا و عذراً على هذا التعبير.

ـ " ماشي الحال " أعذركم.

ذكر مرة كنت قد كلفت بمهمة كرئيس لوفد مفاوض للسفر إلى دولة أجنبية لشراء معدات و تجهيزات لمعمل عقدت القيادة عليه آمالاً عظاماً لأنه سيدعم الاقتصاد و يوفر سلعة يتم استيرادها بالعملات الصعبة و خصوصاً أنّ المواد الأولية اللازمة لمعظم مراحل الإنتاج متوفرة لدينا و بأسعار زهيدة كونها من إنتاج أرضنا الخصبة المعطاءة.

ـ أكمل نحن نستمع.

ـ بالفعل سافرت برفقة وفد كبير من ذوي الخبرة في هذا المجال وشاءت الظروف والصدف أن يكون معظمهم من حاشيتي.

ـ شاءت الظروف أم أنت من وضع تلك الظروف و هيّئها.

ـ الاثنان معاً.

ـ هكذا أفضل.

ـ المهم و لمجرد وصولنا بدأت عمليات المفاوضات من تحت الطاولة و من فوقها كما يقال بحيث تمّت عملية إبرام تلك العقود بيسر وسهولة و تمّ

شحن تلك المعدات و التجهيزات بحراً و براً.و كانت تلك المواد المستوردة في أحسن حالاتها غير مطابقة للمواصفات.

ـ و بالتأكيد تمّ اكتشاف ذلك من قبل الفرق الفنية المكلفة بالاستلام.

ـ نعم حصل ذلك.

ـ ألم يعترض هؤلاء على ذلك؟

ـ نعم لكن و لكثرة المنتفعين الذين قاموا بكمّ أفواه هؤلاء الفنّيين بالرشوة حيناً و بالإزاحة و النقل أحياناً أخرى.

ـ و هل أقلع المعمل؟

ـ نعم أقلع و لم يزل يقدم تلك السلعة الضرورية و إن كان ليس بالصورة المرجوة.

ـ و بالتأكيد زاد رصيدكم المالي.

ـ طبعاً هذا أمر مفروغ منه و كذلك ارتفعت أسهمي أيضاً كي لا تنسى.

ـ يا سلام نتائج مبهرة. قالها الأستاذ حميد و هو يوجه كلامه لزميله،

هزّ زميله رأسه مستهجناً و أشار للسيد بمتابعة الكلام.

ـ نعم و نتيجة لما تقدم كلفت بإدارة جهة كبيرة يتبع لها عشرات المصانع و الورش الصغيرة المساعدة و لعلمكم أنه كلما كبرت هيكلية الدائرة كان المجال أوسع وأكبر لمن يريد أن يستفيد ويستغل منصبه و موقعه إذ تكثر العقود و الاتفاقات و الصفقات بالإضافة للمهمات الخارجية و التي كانت كثيرة جداً.

ـ ارو لنا تفاصيل صفقة خارجية عقدتها و لكن بالتفصيل.

ـ حاضر و سأروي لكم تفاصيل صفقة كمثل يمكن اتخاذه كعينة لما شابهها من صفقات كما أسلفت سأضمّن تقريري المكتوب تفاصيلها و الذي سأقدمه لجنابكم لاحقاً.

ـ تفضل تابع و هات ما عندك.

ـ كلفت من قبل القيادة برئاسة وفد يسافر إلى دولة أجنبية لعقد اتفاق بموجبه يتم توريد مواد ضرورية لإحدى معامل الإدارة التي أرأسها، و بالفعل وصلنا إلى تلك الدولة الأوربية مساءً حيث كان بانتظارنا الملحق الاقتصادي العامل في سفارتنا هناك و من بعد ذلك أوصلنا إلى مقرّ إقامتنا و التي كانت في أحد أهم فنادق عاصمة ذالك البلد.صعد الجميع كل إلى حجرته المخصصة حيث عاش كل منّا الرفاهية بأسمى معانيها و الفخامة التي تتجلى واضحة في ذاك النزل الفاخر.

استلقيت على السرير مسترخياً وبنفس الوقت كنت أحاول لملمة و تجميع أفكاري و كل غايتي أن أريح أعصابي من ضغط ذاك السفر المضني، وأنا هكذا بهذه الحالة تسلل النعاس خلسة إليّ وسيطر على جفوني التي استسلمت بدورها دون أية مقاومة.

لم أصح إلا على طرقات خفيفة على باب غرفتي و كان النادل الذي دخل و هو يدفع أمامه عربة محمّلة بما لذّ و طاب قائلاً:

ـ هذه تقدمة إدارة الفندق ترحيباً بكم سيدي.

ـ شكراً و ناولته بقشيشاً و مـن بعدها غادر الغرفة شاكراً لي مبادرتي.و مـن بعدها عدت واستلقيت لأستسلم مجدداً لأفكاري التي تواردت بسرعة و سلاسة.

و هنا انبرى المستشار قائلاً بعد أن نظر مدققاً في ساعة يده :

ـ الآن ستأخذ استراحة لهذا اليوم على أن تتابع غداً إن شاء الله.

و مـن ثم أمر النادل بأن يجهز للسيد غرفة المكتب الخاصة به كي يمضي ليلته هذه فيها على أن يتم تجهيز غرفة حجز تليق بمكانته.

غادر المستشار و مساعداه القاعة إلـى غرفة مجاورة للتشاور و لكي يفرغ كـل منهم ما كان قـد احتبسه في نفسه طيلة تلك الفترة الماضية و التي كانت عصيبة إذ قال موجهاً كلامه لمساعديه:

ـ ما هو رأيكما فيما سمعتما؟

ـ شيء يضع العقل بالكف كما يقال سيدي. قالها الأستاذ حميد أما الأستاذ عيدو فقد قال:

ـ سيدي الكريم من كثرة ما نسمع ونشاهد من تجاوزات ومخالفات كبيرة كانت أم صغيرة لم أستغرب ما سمعت هذا اليوم بالرغم من أهمية هذا الموقف.

ـ صحيح لأنّ من كنا نحسبه طيلة تلك الفترة قدوة يحتذى بها في المجتمع كونه لم يزل منارة و نبراساً في الوطنية و التفاني و لكن ما سمعناه منه هذا اليوم يبيّن كم كنا مخطئين بل أكثر من ذلك، كم نحن مغفّلون !

ـ صحيح سيدي لأنّ ما تفضل و صرّح بـه يؤكد لنا صحة ما قلته إذ تبيّن أنه كان للمختلسين أستاذاً يقتبسون منه علوماً و دروساً لا تستطيع

عقول رجال المافيا الإيطالية ابتكارها و القيام بها، و كذلك كان لاستغلال المناصب والمواقع نبراساً لمنتهكي كل القيم – وعلى رأسها القوانين – الذين لا يتورعون عن فعل أيّ شيء يحقق مصالحهم مستغلين حاجة الناس الذين قد تدفع الظروف ببعضهم للتنازل عن أسمى ما منح الإنسان و ولّي عليه من خالق الأكوان ألا و هو الجسد.

ـ نعم صحيح وما نطقت إلا بالصواب أستاذ عيدو.

تابع الأستاذ عيدو قائلاً:

ـ ألم تلحظوا كذلك كم من الناس شوهت أخلاقهم ودفع بهم في طريق الانحراف انظروا إلى هذا الجيش مـن ماسحي الجوخ من المرائين الذين يدورون بفلكه كأجرام لا حياة فيها تدور حـول كوكب كبير الحجم ضمها إليه عنوة و لا تستطيع الفكاك مهما جاهدت لأنّ كل من كان يقابله ويمثل أمامه رؤساء كانوا أم مرؤوسين يسمع من فمه الوصف الذي يليق به موزعاً الصفات والألقاب بشكل عفوي بحيث كانت النتيجة بأن يرده نصيبه من كل استشارة و صفقة أو ما شابه مع حرص و رجاء من المتعاملين بأن يتواضع و يقبل بها.

ـ هـذا غيض مـن فيض أيها السادة و على ما يبدو أنّ الواقع يخبئ لنا الأعظم أجارنا الله منه. قالها المستشار و هو يغادر بعد أن تمّ الاتفاق أن يتمّ متابعة الأمر غداً.

غادر المساعدان بعده بقليل بعد أن قاموا بوضع اللمسات الأخيرة على كل التقارير التي كتبت حيث وضعت ضمن خزائن المكتب الـذي أغلق بإحكام حفاظاً على سرية الموضوع و خطورته.

استغل الحاجب مغادرة المستشار ومساعديه وكل من يعمل في هذا المكان الفرصة و تسلل إلى المكتب الذي أودع فيه السيد ممالئاً متملقاً محاولاً الاحتكاك به عساه يكون مـن المحظيين لديه، حيث دار حوله مستفسراً إن كان يطلب أيّ شيء.

تقدم و سأله إن كان يريد طعاماً أو شراباً فهو على استعداد لتلبية أية خدمة يطلبها،

حدث كـل ذلك دون أن ينطق السيد بأية كلمة كون أفكاره كانت فـي هذه اللحظة مشتتة تماماً إذ فاجأه المستشار بإيقاف و إنهاء تلك الجلسة و التي كان بودّه أن تطول أكثر ليسرد كل ما خطر وتوارد إلى مخيلته من أفكار بحيث صارت حالته كمن سار في طريق بدأت وعورته تسوى شيئاً فشيئاً و ما إن استوت مشيته عليه فجأة ظهرت و اعترضت طريقه صخرة هائلة الحجم أوقفته قسراً مجبرة إياه أن يستلقي على سفحها مسترخياً لفترة ريثما يحضر من يساعده ويخرجه من عثرته هذه.

استفاق من سرحانه على آخر كلام الحاجب إذ قال:

ـ أتريد أيّ شيء مني سيدي؟

ـ لا يا بني اذهب إلى بيتك كان اللّه في عونك.

غادر النادل بعد أن أحضر له دورقاً فيه ماء و كأس فارغة.وهنا عاد السيد إلى سرحانه مبحراً في يم ذاكرته إذ إنّ أول ما ورد لمخيلته مشهد تعارفه بزوجته الذي بدا واضحاً و جلياً و كان ضوءاً كشافاً سلط عليه إذ حدّث نفسه قائلاً:

" بينما كنـت أتابع دراستي الجامعية إبان خدمتي فـي سلك الشرطة حيث ركنت سيارتي جـانب الرصيف المقابل لمدخل الكلية وأثناء محاولتي قفل الباب تجاوزتني سيارة فارهة لتتوقف أمام سيارتي و يترجل منها سائقها ليقوم بفتح الباب الخلفي لتنحدر منه ساقاً لامعة ما لبثت الساق الثانية أن وازت رفيقتها و استوت من السيارة فتاة ممشوقة القوام أنيقة ترتدي ثياباً فاخرة و تضع على عينيها نظارة شمسية.

ناول السائق حقيبة يد و مصنفاً يحوي أوراقاً للفتاة ثم استقل السيارة وغادر.وعينيّ لم تفارق هذا الكيان الساحر.

تلفتت ذات اليمين و ذات الشمال و اجتازت الجزء الأول من الأوتستراد و وقفت على الرصيف الـذي يتوسط الطريق.

ركضت خلفها يدفعني لذلك الإعجاب و الفضول لأعرف أيّ السبل ستسلك علّني أصل إلى شيء قد يضعني على طريق التعارف الذي أصبو إليه بقرارة نفسي.

تسرعت إذ ركضت لتقطع الجزء الثاني مـن الطريق عندها حفّت بها سيارة أوقعتها أرضاً و هـي تصرخ .

ركضت نحوها كما فعل الكثيرون و لحسن حظي كنت أول مـن وصل إليها، أمسكت يدها مواسياً و شددتها و بيدي الأخرى التي وضعتها على كتفها ثم ساعدتها على الوقوف مطلقاً أثناء ذلك بعض العبارات التي تقال في مثل هذه الظروف مهدئاً إياها و مشجعاً.

تمالكت نفسها و سوت نظارتها التي غادر أحد طرفيها مكانه خلف أذنها.نفضت ثيابها و هي ترنو نحوي بمقلتين سحبتاني بكل كياني لأسبح

فـي أبحر عينيها الزرقاوين وأنا أتمسك بأهدابها الطويلة و التي كـانت تضفي على وجهها المستدير الناصع البياض بهاءً لم أشهد مثله من قبل.

أفقت على لمسة كنسمة رطبة هبّت مساء صيف حار على وجهي متسللة لأفتح مصراعي أذني لتمرّ عبارات شكر على مـا قمت به.

هززت رأسي بضع هزات لأنّ لساني أحجم و لم يطعني.بقيت هكذا برهة مـن الزمن متسمّراً في مكاني.

استفقت وتلفّت حولي فلم أجدها كونها كانت قد غادرت منذ فترة.تلفّت حولي ثم تابعت سيري و دخلت مبنى الكلية وحضرت كل محاضراتي وعدت كما أتيت إذ أنّ كل معلومة كانت تدخل من أذني اليمنى لتخرج من الأخرى دون أن تترك أثراً، إذ أنّ كل ما كنت أراه هو صورتها وكل ما كان يدخل أذنيّ هو صوتها، و كل تلامس مع أيّ جسم كـان لمسة يدها.

لم أنم ليلتي تلك إذ اتصلت صباحاً بمقرّ عملي و طلبت إجازة طارئة، تجهزت سريعاً إذ ارتديت أكثر ثيابي أناقـة بعد أن حلقت ذقني و تعطّرت و مـن ثم غادرت و كلّي أمل أن أحظى بلقاء يثلج صدري الذي تضرم النيران فيه.

ركبت سيارتي و غادرت الحيّ الذي أسكنه قاصداً الكلية بشغف لم أحسّه من قبل، تفحصت الشارع عـدة مرات متعمداً أن لا أركن سيارتي إلا بعد أن أراها تصل، لذلك قمت بعدة دورات في الشوارع المحيطة بالكلية إلى أن شاهدت سيارتها تقبل.

خفق قلبي بشدة أبطأت سرعتي وأنا أراقب سيارتها بواسطة مرآة سيارتي حتى تجاوزتني، عندها لحقت بها بسرعة و قمت بركن سيارتي خلف سيارتها مباشرة.

ترجّلت بسرعة لأضمن مرافقتها أثناء قطع الأوتستراد على أن يكون ذاك من قبيل الصدفة البحتة و ليظهر اللقاء عفوياً عسى أن تسنح لي الفرصة لتقديم نفسي لها.تدخل القدر ولعب لعبته معي كالعادة إذ ما إن ترجّلت من سيارتي وأنا أراقبها بطرف عينيّ وإذ بي أراها تنظر نحوي بعينين تشعان سروراً اخترق شغاف قلبي مربكاً إياي لدرجة أني أخطأت في تحديد مكان قفل باب السيارة.انتبهت لارتباكي وعندها اقتربت مني ملقية تحية صبت على رأسي سيل عطر سلبني كياني و زاد من ارتباكي لكنها بأن تابعت كلامها معرفة بنفسها: إنها سمر وهي طالبة في نفس كليّتي ولكن بسنة تلي سنتي الدراسية

استعدت رباطة جأشي إذ انطلق لساني من عقاله رددت السلام و قدمت نفسي و عندها ترافقنا لنقطع الشارع المزدوج.سألتني أثناء ذلك عن طبيعة عملي كونها لاحظت أنني أستخدم سيارة حكومية.

أطلعتها على طبيعة عملي و التي لا تسمح لي بأن ألتزم بالدوام النظامي لذا أتابع دراستي الجامعية بشكل حر وهذا يكلّفني المال والجهد بالإضافة للوقت كوني أضطر لنقل كل ما فاتني من محاضرات لألحق بركب زملائي و لا أكون من المقصّرين.ولجنا باب الكلية معاً و افترقنا، كل منا قاصداً قاعته على أمل اللقاء مجدداً بعد انتهاء المحاضرات في كافتريا الجامعة.

وبعدها تكررت اللقاءات التي كانت صدفة مقصودة إذ أصبحت تتم بموجب مواعيد سابقة كوننا تبادلنا الأرقام الهاتفية فيما بيننا و تعرّف كـل منا على طبيعة و برامج عمل وحياة الآخر و استمرت تلك العلاقة تترسخ حتى أصبحت من ضروريات حياتنا نحن الاثنين إذ أصبح من المستحيل على أيّ منا أن لا يرى الآخر كل يوم و لو لفترة وجيزة إلى أن حدث ما كنت آمل به إذ ذات يوم طلبت مني أن أقوم بزيارة لها في بيتها لأنّ أهلها هم من طلب ذلك بعد أن حكت لهم كل مجريات علاقتها بي و شرحت لهم كل شيء عني و بالأخص طبيعة عملي.

ترددت في البداية كوني شعرت بالإحراج والرهبة من اقتحام عالم هذه الأسرة المجهولة و الغريبة عني تماماً لكن ولإلحاحها الشديد أذعنت وتمّت تلك الزيارة التي فتحت لي أبواب المجتمع المخملي على مصراعيه.

صحوت على الباب يقرع و يفتح ليدخـل منه الحاجب ذاته ملقياً التحية بتودد واصفاً نفسه في خدمتي و تحت تصرّفي نظرت إلى ساعة يدي لأجدها السابعة.تلفّت نحو النافذة مستطلعاً وجدت النور يدخل استغربت.سألت الحاجب:

ـ كم هي الساعة الآن؟

ـ السابعة صباحاً يا سيدي.

ـ عندها اكتشفت أني نمت طيلة هذا الوقت دون أن أحسّ ،سويت جلستي و طلبت منه أن يحضر لي فنجان من القهوة.

خرج مسرعاً و هو يقول حاضر في الحال يا سيدي كمن لا يصدّق أنه قد طلب منه شيء. غاب قليلاً ثم عاد و معه صينية عليها فنجان قهوة و

كأس ماء وضعها أمامي على طاولة كانت بجوار الكرسي الذي كنت أجلس عليه و سألني:

ـ هل من خدمة أخرى أقدمها لكم سيدي.

ـ لا شكراً، و لكن متى يحضر السادة عادةً.

ـ حوالي الثامنة و النصف.

حسناً بإمكانك أن تنصرف و تتابع عملك إن كان لديك ما تقوم به.

ـ بالإذن يا سيد واستدار و غادر و لم أره بعدها حتى عاد ليبلغني بقدوم السادة القضاة و الذين كلفوه بإبلاغي بأنه عليّ أن أجهز نفسي للمثول أمامهم بعد قليل.

و بالفعل تهيأت بسرعة و تجهّزت شاحذاً تصميمي و إصراري على ما قمت به حتى النهاية.

ـ صباح الخير أيها السادة قالها المستشار و علائم الرضا ترتسم على محياه.

ـ صباح النور سيدي قالها المساعدان.

ـ أحمل نبأ جيداً.قالها المستشار موجها كلامه للسيّد.

ـ خيراً إن شاء الله؟

ـ لقد تمّ تحضير مكان مريح و مستقل لتركن فيه بعيداً عن كل المنغّصات.

ـ شكراً أنا لا أريد سوى أن تقدموا لي العون لأتمّ ما قمت به فأريحكم و أرتاح.

ـ سنبذل قصارى جهدنا من أجل أن يتمّ ذلك.

ـ شكراً ثانية أيها السادة الأجلاء.

ـ هات يا سيدي أكمل من حيث انتهيت يوم أمس.

ـ عفواً سيدي أرجو منك أن تذكّرني أين انتهيت في حديثي يوم أمس كوني مشوش الفكر قليلاً.

ـ انتهيت...يا سيدي... عندما أنقدت النادل بقشيشاً في الفندق.

ـ آه إيه تذكّرت.بعد أن انصرف النادل و استلقيت مفكراً غلبني النعاس و نمت و لم أفق إلا على جرس الهاتف يرنّ بإلحاح.رفعت السماعة لأسمع صوتاً و كان لأحد عناصر الوفد يذكّرني بموعد كانت الشركة قد حدّدته لنا.

تجهزت سريعاً و غادرت غرفتي قاصداً بهو الفندق.المكان المتفق عليه بيننا نحن أعضاء الوفد كي نجتمع.

و هناك في مقرّ الشركة والتي فاجأتنا ضخامتها و فخامتها إذ إنها من أضخم الشركات في ذاك البلد لأن فروعها منتشرة في أنحاء عدة من هذا العالم.

ضمّتنا نحن و فريق الشركة المفاوض قاعة ضخمة و كان من بين أعضاء ذاك الوفد المفاوض فتاة لم أر لجمالها مثيلاً نشيطة كانت ذات قدّ ممشوق قصيرة الشعر إذ تصل ذوائبه لأرنبة أذنيها، عيناها واسعتان ساحرتان، و كانت تدير كل تلك الجلسة بمهارة يصعب تصديقها ووصفها بحيوية لم أشهد لها مثيل عند كل من تعاملت معهم من قبل في بلدي و في أيّ بلد زرته بقصد العمل أو للزيارة لدرجة أنها كانت تكاد تفرض على جميع

أعضاء وفد الشركة كل مقترحاتها. حتى أنّ رئيس الوفد ذاته كانت تضع أمامه الملفات جاهزة و ليس عليه سوى توقيعها.

ـ ألهذا الحد كانت بارعة تلك المرأة؟

ـ نعم و لم آت على ذكر إلا القليل من مواصفاتها.

ـ لقد شوقتنا للتعامل مع مثل هكذا سكرتيرة أليس كذلك يا سادة موجهاً كلامه لمساعديه.

ـ نعم كم هي نعمة للمسؤول بأن يحظى بسكرتيرة بارعة.

ـ نعم إنها لنعمة كبيرة قالها المستشار و هو يلوح برأسه و تابع كلامه موجهاً الكلام للسيد:

ـ المهم هل توصلتم لاتفاق مرضٍ؟

ـ كلا كون النقاش تشعّب ليطال كل بنود الاتفاق.

ـ بالطبع كانت تلك السكرتيرة هي المفاوض الأبرز.

ـ نعم و بالرغم من ذلك لم نستطع الوصول إلى صيغة اتفاق لذا رفعت الجلسة على أن نلتقي في اليوم الثاني بعد أن يكون كل من الوفدين قد تشاور و أعاد ترتيب أوراقه.

غادرنا مقرّ الشركة بعد أن قدمت لنا وجبة سريعة وعند وصولنا إلى الفندق مقرّ إقامتنا تفرقنا كل إلى غرفته مختلياً بنفسه.

استلقيت على سريري محاولاً أن أستجمع أفكاري و في الوقت نفسه أريح أعصابي بعد أن استحممت و تحررت من قيد ثيابي الرسمية.بقيت هكذا فترة من الزمن قمت بعدها و قصدت الشرفة و التي كانت تطلّ مباشرة

على حديقة مهندسة بشكل متقن و من ورائها استطعت أن أرى بعضاً من معالم تلك العاصمة الجميلة.

أسندت رأسي على مسند الكرسي الذي كنت أجلس عليه مسترجعاً شريط حياتي كلها و كان أول ما ورد من صور هو عائلتي التي لم أتصل بها منذ أن غادرت في هذه المهمة و لذا قمت كالملسوع قاصداً الطاولة المركونة في زاوية الجناح و التي ثبت عليها جهاز الهاتف.

رفعت السماعة لأطلب رقم منزلي من إدارة الفندق حيث قال لي الموظف المختص أنّ عليّ تلقي مكالمة من داخل الفندق و من بعدها سيلبي لي كل ما أطلبه.

ـ و ممن كانت تلك المكالمة.هل هي من أحد أعضاء الوفد؟

ـ كلا بل من تلك السكرتيرة والتي غردت في أذني كحسّون كان في أشجى حالاته، معرفة بنفسها طالبة لقائي مبررة ذلك بأنها هي من كانت السبب في عدم الوصول إلى اتفاق أثناء جلستنا الماضية و أنها تريد من لقاءنا هذا أن تصلح الأمر.

ـ و ما كان ردّك عليها؟

ـ رحّبت بها قائلاً:تفضلي لي الشرف بلقائك.

ـ حضرت وكانت في أسمى أناقتها، وكان برفقتها نادل يحمل باقة ورد رائعة التنسيق.جلسنا وبيننا طاولة صغيرة حيث تناولنا شراباً مسكراً و أثناء ذلك تبادلنا الأفكار ووجهات النظر في كل الأمور عدا موضوع تلك الصفقة و التي لم نأت على ذكرها مطلقاً. وبعد ذلك رقصنا متلاصقين و

بكل هدوء ألقت برأسها على كتفي دون أن تنبث ببنت شفة لدرجة أني حسبتها قد نامت.

حركت جسدي آملاً أن أفهم من حركتها أنها ليست بنائمة عندها أمسكت بخصرها بكلتا يديّ و أبعدتها قليلاً عني و أنا أنظر إلى وجهها، أطرقت حياء و من ثم رفعت عينيها اللتين ضمتا كل خضرة بلادي بل والعالم.

ابتسمت وقلت لها:

ـ هل نشرب كأساً.

أومأت برأسها أي موافقة عند ذلك ترافقنا متضامين إذ لففتها بذراعي لنجلس متقابلين حول تلك الطاولة. بادرتها قائلاً:

ـ ما الذي قصدته عندما ذكرت موضوع الصفقة و الاتفاق.

قطعت كلامي بأن رفعت الكأس و وضعته على شفتي و أمالته قليلاً، ارتشفت منه بضع قطرات ثم أعادته إلى الطاولة بعد أن ارتشفت منه كذلك، ومن ثم انتصبت واقفة لتبتعد قليلاً حيث أخذت تفكّ أزرار معطفها الرخف وسط اندهاشي مـن تلك الحركة و ما تلاها من حركات.

خلعت ذاك المعطف ليظهر جسدها البضّ كتمثال من مرمر يستره ثوب يفضح أكثر مما يستر، اقتربت مني و أخذت مـن يدي الكأس لتضعه على الطاولة و مـن ثم استدارت وأمسكت بيدي الاثنتين و شدتني كي أقف.

تجاوبت معها كالمسحور ضمتني إلى صدرها و بكل قوتها شدتني إلى جسدها أكثر، تململت قليلاً محاولاً التخلص من هذه الحالة لكن دون

جدوى عندها لففت قسم جسدها العلوي بزراعي و نظرت في عينيها اللتين أظهرتا شبقاً يثير في كل رجل نيراناً كامنة.

حركت شفتيها حركة من تطلب التقبيل.

اقتربت بوجهي منها حتى لامست شفتي شفتاها و بحركة سريعة أطبقت على شفتها السفلى ماصاً إياها بكلتا شفتي لاعقاً لعابها سارقاً أنفاساً هيجت في جسدي قشعريرة لذيذة طغت على كل كياني.قدتها و أنا أقبلها نحو السرير حيث استلقت مسترخية و كانّ ملاك النوم استولى عليها، أمضينا فترة ليست بالقصيرة قمنا خلالها بعدة جولات تركت في نفسي أثراً سيبقى خالداً ما دمت حياً.

ـ بم أفضى هذا اللقاء؟

ـ انتهى ذاك اللقاء بموافقتي على كل شروط ذاك الوفد وحصيلة ذلك رصيداً لا بأس به أضيف وتكدّس فوق ركام أرصدتي الموجودة في إحدى بنوك تلك العاصمة.

ـ تمام، هكذا إذاً تمت تلك الصفقة.

ـ نعم تمت و كل شيء مرّ و جرى و كان حسب كل التقارير على أحسن ما يرام.مرّ ذاك الوقت و لم أتصل بعائلتي إلا بعد أن تمّ تحديد موعدٍ لعودتنا الميمونة لأرض الوطن. و أثناء العودة و على متن الطائرة وبينما كانت المضيفة تقدم لنا وجبة طعام رمقتها بمقلتي لألحظ الشبه الكبير بينها وبين ابنتي الصغيرة "هبة".

كلمتني تلك المضيفة بضع كلمات ثم غادرت دون أن أفهم مما قالته شيئاً لأنّ كلاً من خيالي و مخيلتي ذهبتا بعيداً و أسرع من تلك الطائرة إلى أجواء بيتي الذي و حسب وصف كل من

تعامل معي و مع أسرتي أنه نموذجي مثالي و ذلك للتفاهم و الاحترام و الحب السائد فيه، كيف لا وقد تأسس على ذاك الحب الجارف الذي ضمني و زوجتي تلك التي أحالت حياتي إلى نعيم دائم بحيث تولت كل المسؤوليات فيه بدون استثناء إذ كانت تحل كل مشاكله دون الرجوع إليّ خشية انشغالي في أمور عادية حسب قولها تاركة إياي لأتفرغ لمسؤولياتي و مشاغلي و التي كانت في هذه اللحظة وحسب معرفتي أموراً خيّرة لأنها تهم الصالح العام في هذا البلد.

وما إن حطت طائرتي والوفد المرافق أرض المطار حتى وجدت أسرتي بأكملها بانتظاري لنترافق في طريق العودة إلى المنزل حيث رتبت كل شيء فيما يخص و يتعلق في تلك الرحلة و ما نتج عنها من عقود قد أبرمت مع الجانب الآخر وغيرها من مستندات لازمة يجب تقديمها للجهات العليا حسب اللوائح و الأصول المتبعة في مثل هذه الحالات.

المستشار: أريد أن أسألك من ذاك الشاب الذي حضر برفقة أسرتك؟

ـ إنه صهري خطيب ابنتي الكبرى و هو سليل عائلة عريقة و راقية و إنّ أكثر ما يثير فيّ الأسى هو أنني قد أهزّ تلك العلاقة الطاهرة التي تربطه بابنتي و أسرتي نتيجة فعلتي هذه.

ـ قل لي كيف استطعت أن توهم كل الأوساط في هذا البلد و على جميع مستوياتها بشدة ورعك وتقواك و تفانيك في فعل الخير.

ـ كنت و لأسباب كثيرة لا أستطيع تفسيرها لأنها تستند إلى دوافع داخلية أعتبر أنه ومن واجبي تقديم جزء مما أحصل عليه من نتاج عملي بل أعمالي للفقراء و المحتاجين و كذلك للجمعيات الخيرية و دور الأيتام والعجزة و غيرها من جهات تقديم المساعدات و الخدمات لذوي الحاجات الخاصة في كل مدينة تحط رحالي فيها أثناء قيامي بجولات على مشاريع إدارتي المنتشرة في كل مكان.

و كذلك كنت أقدم تلك المساعدات و التبرعات لجمعيات مقرّها خارج البلد حيث هناك يلبس فاعلها و من يقوم بها الصفات الكثيرة و يمنح الألقاب السامية و هذه من أهم أسباب شهرتي الواسعة كونها كانت و في معظم الأحيان أمام وسائل الإعلام المتعددة مرئية كانت أم مسموعة و كذلك أثناء اللقاءات التي تتم بيني وبين جهات لها نفس الاهتمام في كل مكان أزوره والتي في الغالب كان يحضرها جمهرة غفيرة من الناس تسمع بأذنها و ترى بأعينها.

ـ وكنت تصرف من تلك الأموال والتي معظمها أموال مشبوهة "حرام" كيف طاوعك ضميرك على فعل ذلك و هل كنت تظن أنّ ما تقوم به من أفعال يجنّبك محاسبة الخالق في علاه إذ تكفّر عن أفعالك بتصرفاتك تلك.

ـ هذا ما كنت أعتقده طيلة الفترة الماضية.

إلا أنه و في الفترة الأخيرة و بالأخص أثناء خلوتي بنفسي كنت أقيّم مسيرة حياتي الحافلة، حيث تحرك ضميري مستيقظاً من سبات طال أمده ليسبب لي العذاب الذي حرمني من النوم لليالٍ عدة الأمر الذي دفعني و كان له الأثر الفعال لأقف هكذا أمام عدالتكم وقفتي هذه و بمحض إرادتي آملاً أن يكون لعملي هذا أثره الإيجابي بأن تفتح لي أبواب التوبة التي قد

أصل من خلالها إلى سلام داخلي تصحبه مصالحة مع نفسي وضميري آملاً أن أغادر هذه الدنيا طاهراً نقياً من كل ذنب أو شائبة و أقابل وجه ربي و أنا أقف بين يديه كما خلقني.

ـ تلفّت المستشار إلى مساعديه قائلاً:

ـ يجب أن نبلغ السلطات العليا بما سمعناه و بالأخص بالنتائج التي توصلنا إليها ليتم التصرف فيما سيأتي حسب القوانين و الأصول لذا علينا أن نتحفّظ على السيد في مكان آمن.و حسب ما أرى إنّ المكان الذي تمّ تأمينه يفي بالغرض فنبعده بذلك عن أعين و أيدي العابثين.

ـ معك حق سيدي يجب أن نفعل ذلك.قالها السيد حميد و أكّد و أمّن على ذلك السيد عيدو.

ـ استمر النهار هكذا حتى حضرت السيدة الكبرى و كان برفقتها ابنتها الكبرى و خطيبها و شخص آخر قدّم نفسه للسيد المستشار على أنه محامي العائلة و قد حضر بشكل رسمي ليحضر تلك الجلسات حيث تقدّم بوثيقة تتضمن طلباً بوقف عملية الاستجواب لفترة كي يختلي بموكّله.

وافق المستشار على طلبه هذا فبذلك يصيد عصفورين بحجر.إذ أنه يأخذ و مساعديه قسطاً من الراحة وبنفس الوقت يترك السيد ليختلي بمحاميه عسى أن يتفقا على صيغة تنهي هذا العمل بطريقة قانونية.

وكان قد حضر إلى منزل السيد الصهر و الذي كان لظهوره الوقع الإيجابي إذ تحسبت السيدة الكبرى من ردة فعل الخطيب جرّاء ما قام به زوجها.وهنا كانت المفاجأة السارة حيث أبدى تفهماً كبيراً لموقف حماه و إنّ ما قام به هو الصواب بعينه متمنياً أن يقلده الكثيرين ممن تضج بهم أوساط المتنفّذين في هذا البلد و زاد على ذلك استعداده للوقوف معهم في محنتهم

هذه و في هذا الظرف بالذات و الذي سينقل الأسرة بأكملها إلى جادة الصواب و الصلاح و كذلك الرضا الاجتماعي بالرغم من كل ما سيلاقونه لاحقاً من مضايقات ومنغصات وإساءات سيكيلها لهم الحاقدون وغيرهم وهم كثر في مجتمعنا.

وبنفس الوقت كان قد اتفق معهم على أن يرافقهم غداً لمقابلة محام كبير صديق للعائلة لاستشارته و بنفس الوقت لتكليفه رسمياً بمتابعة كل المستجدات و بعد الاجتماع بالمحامي في مكتبه و الذي أيّد بدوره موقف السيد و تبرع أن يحضر كل الجلسات مجاناً و بدون أي مقابل لأنّ ما قام به السيد يعتبر وعلى الأصعدة حالة جديدة إذ سيفتح الباب لصحوة أمثاله من المتجاوزين إن أردنا أن لا نقول غير ذلك.

ـ قابل المحامي السيد في خلوة استمرت لفترة طويلة نسبياً أرادها المستشار و مساعداه أن تطول إلى الأبد كي يخلّصوا أنفسهم من هذا الموقف المحرج الذي وضعوا فيه رغماً عنهم و بنفس الوقت لا يستطيعون إلا أن يكملوا في هذا الطريق حتى الآخر.

بذل المحامي جهداً كبيراً أثناء هذا اللقاء كي يقنع السيد بحضوره معه و إلى جانبه أثناء الجلسات التي ستحصل لاحقاً و كان لبراعته و أسلوبه وطريقة كلامه الأثر الكبير في إقناع السيد الذي وافق على مضض.

في ما يسمى غرفة الحجز والتي كان المستشار قد بشّر السيد بتأمينها له كانت بمواصفاتها أبعد بكثير عما سمعناه و شاهدناه عبر شاشات التلفزة و أفلام السينما حيث تكون تلك الغرف مكتظة بالمطلوبين والمشبوهين على اختلاف صفاتهم و تهمهم و بالأغلب لا تكون تحتوي إلا على مقاعد خشبية.

أما من ناحية الخدمات فهي معدومة تماماً كما أنّ جدرانها المهترئة أصلاً في أغلب الأحيان تكون مليئة بخربشات و ذكريات من مرّ عليها من أمثال هؤلاء.أما بالنسبة للمكان الذي حجز فيه السيد فقد كان أشبه بمكتب فرش حديثاً حيث احتوى على طاولة و بعض الكراسي بالإضافة إلى سرير فرش جيداً وغطي ببياضات نظيفة إضافة إلى حمام يدخل إليه من باب جانبي ضمن تلك الغرفة.

استلقى على السرير شابكاً يديه تحت رأسه موغلاً في ذكرياته التي وبشكل آلي دارت ليتوقف الشريط عندما وافق على أن يقوم بتلك الزيارة الشهيرة إلى منزل من ستصبح فيما يأتي زوجته.

" قمت بزيارة ذاك البيت الكبير والذي إن نمّ فإنه ينم على المستوى المادي الذي يعيش فيه هؤلاء الناس و كان للاستقبال الحار الذي لقيه هناك الأمر الذي سلب عليّ لبي. إذ كان ربّ الأسرة من كبار التجار في هذه المدينة وكذلك كان حال أخوتها الثلاثة الذين شقّ كلٌّ منهم طريقه بعد أن أنهى دراسته الجامعية إذ قام كلٌّ منهم بتأسيس شركة للاستيراد والتصدير تتخصص في مجال من مجالات الاقتصاد.

بعد أن تمّ التعارف بيننا شدّ انتباههم عملي و طبيعته مبدين رغبتهم بالتعاون معي على أن أقدم لهم بعض الخدمات، قدمت لنا وجبة غداء ضمتنا جميعاً مائدة عامرة بأشهى المأكولات و اختتمت تلك المأدبة بشراب حوى ثلجاً مبشوراً أضفى على مذاقه لذة إضافية.

ـ وهل قدمت لهم تلك الخدمات؟

ـ نعم بل و بذلت جهدي في سبيل ذلك و كنت أقدم تلك الخدمات دون أي مقابل لا مادي و لا معنوي مما رسخ قناعة تلك العائلة بأخلاقي

ومناقبي الأمر الذي ساهم في إزالة تلك الحواجز النفسية المعيقة فيما بيننا و كـان لكـل ما تقدم أثره الإيجابي الذي أدى لرفع مستوى العلاقة فيما بيننا لتصبح أشبه بالأبوية و الأخوية و كان للود و الاحترام الذي ساد بيننا أثره الواضح و الفعال في نفسية سمر التي أطلقت مشاعرها من عقالها لتنتشر في فضاء عالمنا نحن الاثنين لدرجة أنها وافقت و بدون أي تردد على إقامة علاقة أكثر رسمية فيما بيننا و في الوقت ذاته قرّرنا أن يتم التكتم على تلك العلاقة حتى يصبح الوقت والظرف أكثر ملائمة.

مرت الأيام وعلاقتنا هذه تزداد رسوخاً ومتانة لدرجة أصبح كل منا بأمسّ الحاجة لإعلانها والتصريح بها وخصوصاً أنني قد تخرجت من الجامعة.بعد تخرجي و حصولي على إجازة في الحقوق وانتقالي إلى عمل آخر و منه إلـى منصب أكبر و هكـذا حتى أصبح الوقت أكثر ملاءمة للقيام بتلك الخطوة الهامة.

تحينّا الفرصة إذ كانت الأسرة كلها مجتمعة في المنزل لتحيي مناسبة أسرية كنت قد دعيت لها، و بعد الانتهاء مـن طقوس تلك المناسبة حيث اجتمعت العائلة بأكملها حـول مائدة زخرت بأشهى أصناف الحلويات و الفاكهة بنت موسمها و كذلك التي كـانت قد أخرجت من ثلاجات البيت.

انتهزت فرصة الرضا هـذه التي تسود و تطفو على تلك الأسرة حيث بادرت موجهاً كلامي للأب الوقور رب تلك الأسرة وطلبت يد ابنته منه و من أمها و أخوتها جميعاً راجياً قبول طلبي و جعلي واحداً من أفراد أسرتهم لأحصل و أنال عظيم الشرف و المجد.و كانت المفاجأة الكبرى و التي عقدت لساني إذ وافق الجميع علـى طلبي مبدين عظيم الراحة و السعادة لطلبي هذا قائلين لا يوجد شخص يؤمنون علـى ابنتهم معه و يضمنون لها

الراحة و الطمأنينة معه أكثر مني.كيف لا و قد اختبروني جيداً في الفترة الماضية.

تمّ الزواج الميمون و بمساعدة مالية كبيرة من قبل الأسرة إذ وفرت لـي كل مـا يتمناه أي شاب في مثل عمري و له نفس ظروفي و وضعي المالي.

و مرت الأيام والسنون حيث رزقنا مـن الأولاد ثلاثة بنتان و صبي بذلنا كل جهدنا أنا و زوجتي لتأمين و توفير حياة هانئة راقية و مريحة لهم.

كبر الأولاد بحيث تخرج الصبي البكر من الجامعة و هو الآن يتابع دراسته العليا فـي إحدى الجامعات الأجنبية.

أما الفتاتان فهما في المراحل الأخيرة من دراستهم الجامعية حيث خطبت الكبرى لذاك الشاب المحترم و المتفهم."

أعادته للواقع طرقات على الباب ليدخل ذاك الحاجب و هو يحمل صينية حوت بضع قطع من الجبن الصناعي و كأس شاي و صحناً صغيراً فيه بضع حبات من الزيتون.وضع المستخدم الصينية على الطاولة وغادر دون أن ينطق بأية كلمة.و عندما رأى وجبة الإفطار تذكر أنه لم يتناول أي طعام منذ أن احتسى قهوة الصباح مع زوجته في شرفة منزله.

أحسّ أنّ هناك شيئاً ما يتحرك في بطنه شيء لا يعرفه إلا الجائع.

تناول طعامه بشهية لم يتمتع بها منذ أمد بعيد، تعجب من إحساسه هذا، هزّ رأسه وهو يتابع مضغه للطعام محاولاً إقناع نفسه بأنها بشارة لخير أخذت ملامحه تطل و تظهر على حياته.

حصل المستشار على الإذن و الموافقة لمباشرة التحقيق و متابعته من السلطات المختصة.

بعد تناوله لوجبته حضر النادل ليبلغه بأنّ عليه التجهز للمثول أمام السادة القضاة بعد قليل.

و بالفعل حضر في الوقت المحدد و لكن هذه المرة كانت الجلسة أكثر ما تكون قرباً من جلسات المحاكمة المثالية حيث زاد عدد المساعدين والكتبة بالإضافة لبعض الأشخاص عرف فيما بعد أنهم مندوبون من إدارة قضايا الدولة.

قرع رئيس المجلس بمطرقته على الطاولة منبهاً الجميع و معلناً عن البدء بالتحقيق قائلاً:

ـ أيها السيد لقد تقرر أن نتوسع في جميع المواضيع التي حضرت وبمحض إرادتك للإدلاء والاعتراف بها و كذلك عن جميع الذين شاركوا في كل تلك المخالفات التي تمت فيما مضى و عبر سنين عملك الطويلة في القطاع العام.

ـ هذا جيد و أنا جاهز و على أتم الاستعداد لإفادتكم بكل شيء.

ـ نريد منك كشفاً كاملاً و مفصلاً بأسماء كل من تآمر معك و من ساعدك و ساهم بكل الإرتكابات التي حدثت،

أذكر و أعيد أنت أتيت بمحض إرادتك لذا نريد كل شيء منك بالتفصيل.

ـ حاضر و سأبدأ بمساعديّ المقربين أولاً و لن أذكر كل شيء في جلستنا هذه بل سأضمن ذلك كله في التقرير المكتوب الذي سأدونه و أقدمه

لحضرتكم لاحقاً كما أسلفت.كما أنني سأميز من قام طواعية و بمحض إرادته و من أجبر و ضغط عليه للقيام بذلك ليأخذ كل ذي حق حقه و ينال المسيء جزاءه العادل.

ـ ممتاز هيا ابدأ إذاً.

ـ و عند ذلك دخل المحامي إلى القاعة و أخذ مكانه قبالة مجموعة التحقيق و الذي كان قد حضر مسبقاً و التقى بالسيد حيث اتفق معه على كل شيء.رغم أنّ الموقف القانوني للسيد كان واضحاً إلا أنه كان مقتنعاً بوجهة نظر السيد إذ قام بتوجيهه و تزيده ببعض النصائح رغم معرفته بأنّ السيد مجاز فـي الحقوق و أنه متمكن و بارع في هذا المجال و إلا فكيف كان سيتسنى له استغلال ثغرات القانون والنفاذ منها.

وقف السيد و بدأ الكلام قائلاً:

ـ سأسرد على مسامعكم قصة كل من قام بانتهاك و استغلال المناصب للتآمر على هذا البلد و اقتصاده بادئاً حديثي بالسيد أبو مهند.

ـ لماذا أبو مهند هذا بالذات؟

ـ لأنـه مثلٌ حي و حاضر لمستغلي المنصب الأفذاذ و الذين مرروا كل سنوات خدمتهم الطويلة فـي جميع قطاعات الدولة دون أية هفوة مهما كانت صغيرة لذا نراه ينال كل الرضا و الثناء دائماً.

ـ تفضل تابع.

وهنا فتح باب القاعة لتدخل زوجة السيد وابنتاها وكان يرافقهم الصهر و جلسوا في الأماكن المحددة للمراقبين و الجمهور بعد أن كانوا قد استحصلوا على موافقة مسبقة من القاضي رغـم عـدم جواز حضور أي

شخص في مثل هذه الجلسات لأنها تعد جلسات تحقيق من الناحية القانونية.

نظر في عينيّ زوجته و ابنتيه اللواتي بادلنه النظر بانكسار وخصوصاً الابنتان اللتان كـانت حبات الدمع تتدحرج على وجنتيهما بصمت و وجل.أدار وجهه نحو القضاة متابعاً ما كان قد بدأ به.

" أبو مهند هذا رجل منبته بسيط إذ إنه ينحدر من وسط فقير بل معدم حيث أكمل دراسته فـي معظم مراحلها بشكل حر كونه كان يعمل كي يؤمن مصاريف دراسته إلى أن حصل على شهادته العليا كمهندس زراعي و بدأ تسلق السلم الوظيفي درجة درجة إذ تعين كمسؤول في البداية عـن وحـدة زراعية تشرف على خطة زراعية لقرية صغيرة.و كان منذ بدايته مثالاً يحتذى بالاندفاع و الغيرة الوطنية الأمر الذي أكسبه ثقة رؤسائه في كل مرحلة من مراحل حياته العملية الذين قاموا بترشيحه لتبوء مناصب عدة إلى أن وصل لمنصب مدير عام لإحدى شركات القطاع العام الحساسة.

و شاءت الظروف أن تكون تلك الشركة تابعة للإدارة التي كنت أشغل منصب مديرها العام و مـن هنا بـدأ التعامل و التعاون فيما بيننا و الذي كان على أكمل وجه و سأفصل لعدالتكم بعضاً من هذه التعاملات في هذه القاعة و ما يبقى سيرد ضمن تقريري المكتوب لاحقاً."

ـ جيد أكمل كلامك من فضلك.

ـ " نعم لقد حضر السيد أبو مهند إلى مكتبي ذات يوم حاملاً ملفاً كان قد أعدّه بالتعاون مع أركان إدارته المطيعين والذي كان فحواه أنه قد تقرر إنشاء ورشات مساعدة ضمن مصانع شركته تقوم بتصنيع و إنتاج الألبسة بشتى أنواعها مبرزاً الناتج الجيد لهذا المشروع.أعجبت بالفكرة بل

أثنيت عليها متمنياً أن تعمم على جميع مصانع و معامل الدولة لذا حملت المشروع وقمت بعرضه على الجهات العليا والذين بدورهم أعجبوا بالفكرة و كذلك بعقلية السيد أبو مهند الخلاقة.

وانطلقت هذه الورشات التي بدأت أرباح عملها تصب في خزينة الدولة و كان بعض من هذه الريوع يصب في خزينتي الشخصية."

ـ هذا عمل جيد و يستحق الثناء و المديح .أين الخطأ في ذلك.

ـ نعم الظاهر من الأمر كان كما وصفتم لكن ما كان يحدث في السر و الخفاء كان فظيعاً.

ـ كيف ذلك وضّح من فضلك.

ـ كان السيد أبو مهند يستغل هذا المشروع خير استغلال إذ كان يعقد الاتفاقات و الصفقات مع التجار لتوريد المواد الأولية اللازمة لسير عمل المشروع وكذلك لتصريف وتوزيع البضاعة الجاهزة بحيث كان وعند كل صفقة أو اتفاق يحصل على حصة الأسد التي كان لي نصيب منها بالطبع.

ـ أبو مهند يا رجل !؟

ـ نعم أبو مهند.

ـ يا إلهي ..! قالها صائحاً:كان الله في عون هذا البلد و أهله، هات أكمل و هل ستذكر شيئاً آخر يخص السيد أبو مهند.

ـ نعم سأورد تفاصيل معينة عن كيفية تلاعب السيد أبو مهند و أعوانه في طريقة سير وكيفية إنتاج تلك الورش لبضائعها.

ـ هات نورنا من فضلك.

ـ كـان يشتري المواد الأولية و عـن طريق لجان يشرف شخصياً على تسمية أعضائها و بالأخص الأقمشة، و كما هو معلوم عندكم أنّ القماش عندما يورد من مصانعه إلى الأسواق كانت أثوابه تطوى على طبقتين و يباع على هذا الشكل و بهذه الطريقة و عند وصول تلك الأقمشة كـانت تفتح و تسلم طبقة واحـدة حيث تتضاعف كمية القماش الواردة بينما السعر يبقى ثابتـاً فبذلك تحوّل قيمة نصف الكمية من تلك الأقمشة لجيوبه و البعض اليسير منها كان يوزع كفتات على أعوانه الصغار.

ـ يا سلام خطة لا تخطر على بال إبليس.

ـ نعم و ما سأذكره أعظم.

ـ و هل هناك ما هو أعظم.

ـ نعم هناك الكثير.

ـ تفضل يا سيدي تابع كلامك.

ـ كان السيد أبو مهند يعقد صفقات واتفاقات مع إدارات المعامل الخاصة بحيث كانت تورد إنتاج تلك المعامل و الورشات إلى معامل و ورشات الشركة كي تتم العمليات النهائية مـن صباغ و طباعة و تفصيل وغيرها بحيث كانت تلك الورشات توفر أجور فنيين كثر والتي في الغالب تكون مرتفعة جداً بينما يقوم عمال و فنيو شركاتنا و الذين يتقاضون رواتب متواضعة جداً مثلهم مثل كل العاملين في القطاع العام و بالتأكيد كانت هناك فوائد مادية له و لمن حوله و كان نصيبي يصلني أول بأول كما يقال، و سأورد على مسامعكم قصة قصيرة لكنها كبيرة بمعانيها و منعكساتها.

ـ هات اسمعنا.

" كانت الوحدة الإنتاجية تابعة و بشكل مباشر للإدارة التي كان يرأسها أبو مهند و كان لطبيعة عملها خصوصية كبيرة جداً إذ إنه يتوجب إجراء صيانة كاملة كل عام لها لأنّ أجزاء كثيرة تتآكل وبسرعة مع مرور الزمن، وكانت تلك الإدارة قد أبرمت عدة عقود مع الشركة الصانعة والموردة لكل تجهيزات هذه الوحدة، وكانت تنص على أن توفد تلك الشركة فريقاً كل عام لإجراء تلك الصيانة و كانت تكلف مبالغ طائلة و بالعملة الصعبة.

وذات مرة و أثناء إجراء تلك الصيانة الدورية تصادف وجود مهندس شاب بسيط ونبيه من تعداد الفريق المساعد لفريق الصيانة إذ أتقن ذاك العمل جيداً من خلال ملاحظاته الدقيقة كما يقوم به كل فرد من أفراد الوفد الأجنبي."

ـ ما قلته أمر عادي و يحصل بشكل دائم و في قطاعات كثيرة من الدولة.

ـ نعم لكن ما حدث لم يكن قد صار و حدث سابقاً.

ـ ما الذي حدث إذاً؟

ـ في العام التالي قامت إدارة المنشأة تلك برفع كتاب للمديرية تطلب مراسلة الشركة لإرسال فريق عملهم، إلا أنّ ذاك المهندس الشاب انبرى معلناً استعداده للقيام بذلك.

رفضت إدارة المنشأة و كذلك المديرية طلبه، استغل زيارة الوزير المختص لتلك المنشأة و قام بإبلاغه بعرضه هذا الأمر الذي أدى بالوزير بالموافقة مبدياً دعماً لا حدود له لهذا المهندس الشاب.

ـ جيد و هل نفّذ ذاك المهندس ما كان قد وعد به؟

ـ نعم و بدقة و إتقان نادرين.

ـ ممتاز و كم وفّر على خزينة الدولة من العملات الصعبة؟

ـ الكثير.

ـ ما الذي حدث؟

ـ ما قـام به لم يرض أحداً من المستفيدين من قدوم أولئك الخبراء لذا قاموا بالضغط عليه مستغلين دعم جهات كبيرة لهم مما دفعه لتقديم استقالته و مغادرة البلد.

ـ يا سلام هذا ما حدث حقاً.

ـ نعم و بالوثائق.

ـ ما الذي حدث لاحقاً؟

ـ عندما حان وقت و موعد إجراء تلك الصيانة المذكورة قامت تلك الإدارة بمراسلة الشركة التي أوفدت و على الفور وفداً فنياً لإجراء تلك الصيانة و لكن احذروا من كان يرأس ذاك الوفد.

ـ من؟

ـ نفس المهندس الذي أجبر على ترك العمل.

ـ أوف أوف قالها المستشار و هو يهز رأسه و سأل:

ـ ألهذا الحد و دون أن يلفت انتباه أحد؟

ـ نعم و أكثر لأنه كان و عند انتهاء كل مرحلة يكلّف أتباعه المخلصين بكتابة تقارير متقنة و بـارعة تبرز ميزات و حسنات تلك المشاريع و فائدتها الجمّة للخزينة العامة للدولة.

ـ كيف كان يمرر تلك التقارير في الأوساط العليا؟

ـ كان لنا عملاؤنا و أصدقاؤنا المخلصون و الذين كانت تصلهم حصصهم و مخصصاتهم في وقتها و حينها.

هزّ المستشار رأسه استهجاناً و قرر رفع الجلسة منهياً عمل اليوم و مؤجلاً الجلسة إلى يوم آخر

استلقى على سريره في غرفة الحجز بعد أن تناول وجبة عادية أحضرها النادل.سرح بأفكاره ولكـن هذه المرة ذهب بعيداً جداً إلى هناك حيث تقع بلدته التي نشأ فيها و غادرها عندما قرّر الانتساب إلى سلك الشرطة و التي يعيش فيها أخواه الاثنان و اللذان و بالمساعدة الجلّى التي قدمها و لم يزل لهما كانا قد أنهيا دراستهما الجامعية بحيث شقّ كـل منهما طريقه في هـذه الحياة

إذ أصبح الأخ الأكبر مدرساً في ثانويات البلد بينما كان الثاني يشغل وظيفة مرموقة في إحدى دوائر الدولة هناك و بالطبع كان لوضع شقيقهما الاجتماعي و الرسمي الدور و الفضل الأكبر في المكانة الاجتماعية التي آل إليه وضعهما هناك حيث أصبح كل منهما محجاً لكل ذي حاجة و طلب.

وكانت كل تلك الخدمات تقدم وكل تلك المطالب كانت تلبى جميعها و بالطبع كان الخير يعم.

" ماذا سيحلّ بهما؟ " سأل نفسه.بالطبع سيتعرضان لشتى أنواع الضغوط و المضايقات من قبل الحاقدين و الحاسدين في محيطنا و هم ولله الحمد كثر ، كان الله في عونهما و أجارهما ما أقدمت عليه

ثم استدار مستسلماً لنوم عميق لـم يستيقظ منه إلا على الحاجب و هو يدخل طعام الفطور و كان بسيطاً جداً و لكن كان شخصياً جداً جداً، وضع الحاجب الصينية على الطاولة دون أن ينطق بأية كلمة.

التمّ شمل الجلسة بحيث اتخذ كل شخص مكانه المحدد و المخصص بينما أخليت القاعة من كل من لا يهمه ما يجري إلا من المحامي الذي حضر بمفرده و عندما تمت كل الإجراءات افتتح المستشار جلسة اليوم قائلاً:

ـ تعال إلى هنا يا سيد.

تقدم و وقف أمامهم بوجه مشرق كونه نام ليلته دون أية كوابيس.

ـ هات قدم لنا الحبة الثانية من مسبحة المنحرفين.

ـ يا سيدي الكريم الآن سأورد على مسامعكم قصتي مع شخص قد تستغربون ذكر اسمه.

ـ من هو؟

ـ السيد أبو باهر.

ـ أبو باهر الشخص المعروف ذاته.

ـ نعم هو بعينه.

ـ قل غير هذا الكلام يا رجل.

ـ لا أكرر هو من أقصده بذاته.

ـ تفضل.قالها وهو يقلب كفيه.

ـ " السيد أبو باهر يا سادتي الكرام مثله مثل كل الذين استغلوا عضويتهم السياسية في أحد أحزاب الائتلاف الحاكم، إذ إنه تدرج بعمله الوظيفي من مدير لوحدة إنتاجية مقرّها منطقة نائية من مناطق بلدنا الجميل و كان خلال خدمته مثالاً يحتذى في التفاني في العمل و النشاط و الانضباط بحيث صار يمثل القدوة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى فبذلك

كغيره حاز على رضا و ثقة رؤسائه و احترام مرؤوسيه له لحنوه عليهم ووقوفه إلى جانبهم في كل مراحل حياتهم العامة والخاصة.

ترقى وظيفياً بسرعة ويسر نتيجة تزكية و ترشيح رؤسائه و الموثوق برأيهم لدى المسؤولين في الجهات العليا من الدولة.

استمر هكذا إلى أن ترأس جهة تنفيذية تتولى الإشراف على تنفيذ كل المشاريع المقررة من قبل القطاع العام التابعة له تلك الجهة بحيث قام بمتابعة عمل كل الدوائر والوحدات و غيرها من جهات تابعة وواقعة ضمن صلاحياته ومسؤولياته فما أن تباشر أية جهة أو موقع كان حتى ينقلب ذاك المكان رأساً على عقب إذ يسود النظام و تزول كل المخالفات و تختفي كل مظاهر الفوضى و الاستهتار و التسيب الأمر الذي نتج عنه رفعاً لسوية الإنتاج و بالتالي مردوده بحيث تتحول تلك الجهة من قطاع خاسر إلى آخر رابح و كان كل ذلك ينعكس إيجابياً عليه و على سمعته و بريقاً لصيته إذ يحوز على رضا و ثقة القادة لدرجة صار اسمه يلمع كلقبه إذ ما إن يذكر حتى تكال له المدائح كيف لا وهو أهل لها.

ـ كل ما تم ذكره إلى الآن جيد بل أكثر من ذلك إنه رائع.لم أتيت على ذكر ذلك الرجل المرموق إذاً؟

ـ اصبر عليّ يا سيدي الفاضل قليلاً و من بعدها احكم بنفسك.

ـ هات أكمل و عذراً على المقاطعة.

ـ"اسمع يا سيد وأنتم أيها السادة الكرام:إنّ هذا السيد ذو السمعة الباهرة كنت قد تعرفت عليه منذ بدايات عملي الوظيفي إذ كان من أوائل الذين اكتشفوا مواهبي و منذ ذاك الحين لم يدع فرصة و لا مناسبة إلا و استغلها خير استغلال لتدر عليه بالمنفعة الشخصية وبطبيعة الحال عليّ أنا.

استمر التعاون فيما بيننا هكذا حتى آخر أيام عمله الوظيفي بحيث كان يبذل قصارى جهده لمرضاتي هو و كل من كان يلف لفه.

ازدادت علاقتنا حميمية تبعاً للمنافع المتبادلة لدرجة أنه تفرّد بالحيازة على كل ما يصدر عن إدارتي من صفقات و مشاريع لإدارته مكرساً نفسه و كل من يحيط به كي يحظوا بالثقة المطلقة مني إذ إنني قمت بتجريبهم في أوقات عدة و مناسبات عدة و عندما أثبتوا جدارتهم و ولاءهم المطلق لي وكل ذلك كي لا ينقطع سيل المنافع بالدرجة الأولى و من ناحية ثانية لخوفهم من أن يرتكبوا أية حماقة أو هفوة تؤدي بهم إلى زاوية قصية يلفهم فيها النسيان فيسقطوا من حساب الزمن. "

أخرج المستشار منديلاً من جيبه و مسح به عرقه و هو شارد الذهن و اللب نتيجة ما سمعه عن هذا الرجل الذي كان و لم يزل محطّ ثقة و إعجاب كل من تعاون معه من رؤساء و مرؤوسين.

ـ أكمل و هو يخاطب نفسه: لقد زرعت الشك فيّ و بمن حولي.

ـ سيدي الكريم لا تستغرب مجتمعنا مليء بأمثالي وأمثال هؤلاء المستغلين لمناصبهم ممن سأذكر أمامكم لاحقاً من ذوي المواقع الصغيرة و الكبيرة، سياسية كانت أم تنفيذية.

ـ تفضل أكمل كي لا يطول بنا المقام.لذا أذكر لنا بعضاً من تلك الصفقات كمثل و بعدها سنتناول البقية الباقية في سياق التحقيق.

ـ أبو باهر كان المسؤول التنفيذي الأول في إحدى مناطق بلدنا و كان من صميم أعماله تنفيذ و مباشرة كل المشاريع اللازمة لاستمرار حياة تلك المناطق و راحة أهلها.و من أهم تلك المشاريع و الأعمال هو إعادة تنظيم و إقامة و إنشاء البنى التحتية لتلك المناطق كشق الطرق و الشوارع و ما سينتج عنها من إقامة و إنشاء شبكات المياه ة الكهرباء و الصرف الصحي.تلك

الأعمال و التي تعتبر و لأهميتها أساس كـل تلك المشاريع و التي إن تمّ تنفيذها بشكل جيد و دقيق تكون نعمة للمواطنين و إلا فكان العكس.

بالإضافة لذلك و بناءً على أنّ التخطيط لتلك المشاريع يجب أن يلبي الحاجـات و لفترات طويلة، وهنا كانت الطامة الكبرى إذ إنّ الظروف الكثيرة و العديدة التي أدت لتحكّم البيروقراطية التي بدورها ألغت بل غيبت التنسيق بين جهات الدولة الأمر الذي أدى لأن تقوم كل جهة بتنفيذ واجباتها و حصصها من تلك المشاريع على طريقتها و في الوقت الذي يلائم ظرفها.فمثلاً عندما يقرر شقّ طريق تنظم به أحياء عدة من مدينة معينة يجب و بالدرجة الأولى إنشاء شبكات البنى التحتية كلها و من ثم تتم عملية التعبيد. ولكن ما كـان يحدث غير ذلك تماماً إذ تقـوم الجهة صاحبة الصلاحية بشقّ ذاك الطريق و تسويته و بالطبع كانت تقوم بمراسلة الجهات ذات الصلاحيات الأخرى كي تقوم بما عليها من مهام لكن و للظروف الإدارية و تعقيداتها تتعثر تلك الجهات مما يؤدي إلى اعتبار تلك الجهة أنّ تلك من الدوائر مستنكفة لا تستطيع أن تقوم بما عليها من مهام بحجة أنّ لا اعتمادات أو لا يوجـد مخططات أو ما شابه من أعذار و كون تلك الجهة ملزمة بوقت محدد لتنفيذ ذاك المشروع تقوم بتعبيد ذاك الطريق.وما إن ينتهي حتى تنبري كل شركة لتنفيذ ما عليها من واجبات بحيث يقص ذاك الطريق لمرات عدة.

وكانت كل التقارير التي ترفع للقيادة تشير إلى أنّ كل شيء يسير على أحسن ما يرام بالرغم من أنّ ذاك الطريق سيقرر تعبيده لمرة ثانية و ثالثة و هكذا دواليك لأنّ تلك التقارير كانت تزكى من قبل رؤسائنا الذين يتولون الدفاع عنّا أمام تلك الجهات.

نشير و نؤكد أنّ كل شيء يسير إلى الأمام مثل سير إنسان أعرج.

ـ لم كل هذا ما هي مصلحتكم من ذلك؟

ـ كله كان يصب في مصلحتنا سيدي الكريم.

ـ مصلحتكم أنتم كيف ذلك؟

ـ طبعاً لأن كل ما تحتاجه تلك المشاريع كان يورد من معاملنا و منشآتنا الخاصة و التي يديره أقارب لنا أو مقربون فبذلك تتضاعف أرباحنا و تتراكم أرصدتنا المودعة في بنوك داخلية و خارجية.

ـ سأورد على مسامعكم قصة حدثت لتواكب حديثنا هذا.

ـ هات تفضل.

ـ " ذات يوم حضر السيد أبو باهر إلى منزلي على عجل بعد أن كان قد أعلمني بذلك هاتفياً.جلس في المكتب و علائم الاضطراب بادية على كل حركاته.سألته :

ـ خيراً أبا باهر ما هو هذا الأمر الضروري و الهام الذي دفعك للمجيء إلى هنا في هذه السرعة.

ـ ما أتيت كي أطرحه على سيادتكم هام جداً و خطير.

ـ أوف، أوف أثرت فضولي يا رجل قل ما عندك.

ـ أستطيع الكلام كيفما أريد.

ـ نعم فالدار أمان كما يقولون كون معظم أفراد أسرتي خارج المنزل.

ـ ممتاز.

ـ هيا تكلم.

ـ يا سيدي ونحن نقوم بتجريف الأرض تأسيساً لشق طريق لقرية عين الدرب علقت فجأة إحدى عجلات جرّافة كانت تسوي قطعة من تلك المنطقة حاولنا إخراجها بشتى الوسائل عبثاً كانت محاولاتنا كونها كانت تغوص أكثر كلما حاولنا ذلك حيث صارت الأرض و نتيجة لذاك التجريف أكثر هشاشة.

عاينت مكان الحادث بعد أن قام المهندس عسّاف المشرف على ذلك المشروع و الذي تعرفه سيادتك جيداً

ـ نعم أعرفه فهو شاب نشيط.

ـ نعم هو كذلك.

ـ و عندما حضرت...ما الذي رأيته و أثار فيك كل هذا القلق؟

ـ لأنه وفور وصولي علمت بأن ذاك المكان الذي علقت فيه تلك الآلية هو موقع أثري بالتأكيد

ـ كيف تأكدت من ذلك؟

ـ من نوعية التربة إذ إنها تربة رديميّة المنشأ و هي تتواجد كثيراً في مثل هكذا مواقع.

ـ كيف تصرفت حينها؟

ـ قمت بصرف كافة العاملين عدا سائق الجرّافة و ذاك المهندس كونهم ممن يحفظون السر.

ـ حسناً أكمل.

ـ اتصلت برئيس المرآب طالباً مساعدته مبيناً له الموقف الذي نحن فيه.و بالفعل حضر و كان برفقته عدد من مساعديه و كانوا قد أحضروا معهم جرافة أخرى و بواسطة كبل معدني تمكن هو ومساعدوه من رفع وسحب تلك الجرافة.

ـ هل علم ذاك الشخص شيئاً عن ذاك الموقع؟

ـ كلا و لنفرض أنه شكّ في أمرها فذاك لا يهم لأنه من أتباعي المخلصين

ـ ما الذي فعلته بعد ذلك؟

ـ قمنا بالحفر بواسطة معاول و بأيدينا حتى تبين لنا العجب.

ـ ما الذي ظهر لكم.

ـ كنز كبير جداً يا سيدي.

ـ ما الذي تقوله؟

ـ هذه هي الحقيقة سيدي، لذا جئت طالباً المشورة و النصح.

ـ خيراً فعلت، و هل قمتم برفع ما شاهدتموه؟

ـ نعم و قد خبأناه في مكان أمين.

ـ و هل كان قطعاً أثرية أم نقود؟

ـ من كلا النوعين.

ـ هل قدّرت كم تبلغ من النقود؟

ـ لا وذلك لضيق الوقت.

ـ حسناً فعلت و أين خبأتم تلك اللقيا ؟

ـ في مستودع رقم /٢٧/ ضمن مزرعة الخيول.

ـ أحسنت صنعاً فهناك فعلاً أكثر الأماكن أمناً.

ـ ما الذي تقترحه علينا سيدي؟

ـ انتظر و سأرافقك.

غبت قليلاً ثم عدت لنترافق إلى حيث وضع ذاك الكنز.

ـ هل كان كنزاً حقيقياً كما ذكر أبو باهر.قالها المستشار.

ـ نعم كان كنزاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى إذ كان مؤلفاً من عدة تماثيل وقطع فخارية بالإضافة لوعائي فخار مملوءين بالقطع الذهبية.

ـ ما الذي فعلته بعد ذلك.سأله الأستاذ عيدو.

ـ اجتمعت ببعض مساعدي ممن ينتشرون على جميع المنافذ الحدودية و الذين يتمتعون بخبرة عالية في عمليات التهريب و التسلل دخولاً و خروجاً.

ـ و هل قمتم بتهريب تلك الثروة خارج البلد.سأل المستشار.

ـ طبعاً.

ـ و كم كانت حصتك؟

ـ النصف تماماً.

ـ و الباقي؟

ـ وزع على البقية كل حسب مكانته و مهامه.

ـ يا سلام فعلاً إنكم عادلون.

ـ هذه طريقتي في العمل.

ـ ألم يتسرب خبر تلك اللقيا أبداً.

ـ أبداً و هذه أول مرة نعلن ذلك.

ـ ما الذي فعلتموه بذاك الطريق الشهير؟

ـ نفّذ بعد أن تمّت إزاحته عشرات الأمتار يميناً و بعدها قمنا بتسليم ذاك الموقع إلى هيئة الآثار.

ـ ألم يكتشفوا ما حدث؟

ـ نعم و كانت كالعادة تقاريرهم تفيد بأنّ هناك عملية نهب منذ زمن تمت لذاك الموقع.لذا مرّ كل شيء بسلام.

ـ فعلاً يا سلام عليك يا بلد.

ـ و تكرر ذلك عدة مرات و في أكثر من موقع و مركز تولاه السيد أبو باهر الماهر بصياغة التقارير التي كانت ترفع للجهات العليا و التي كانت تتضمن الردود على الشكاوى التي يتقدم بها المواطنون و التي كان يسميها منغصات عادية يتم العمل على إصلاحها و تلافيها بل و إزالتها و إن كل شيء يسير وفق الخطة المرسومة إذ كانت تلك التقارير تلقى الصدى الحسن لدى القادة السياسيين بل كانت تثلج صدورهم و تريح بالهم كونها تطمئنهم على رعيتهم.

استمر التعاون بيني و بين السيد أبـو باهر حتى العـام الحالي حيث أحيل إلى التقاعد لبلوغه السنّ القانونية و كانت قد أقيمت له حفلات التكريم و في أماكن عدة كان قد تولى المسؤولية فيها وفاء لـه و اعترافاً بفضله

و جميله الذي أبداه سابقاً لكل من تقابل معه مـن رؤساء و مرؤوسين و بالأخص المرؤوسين الذين عايشوا ذاك الرجل عن قرب.

ـ ما الذي يفعله السيد أبو باهر بعد أن تقاعد.

ـ هو الآن يركن في مزرعته الخاصة مستمتعاً بثمرة عمله حيث صارت تلك المزرعة ملقى يلتقي به الأصحاب و رفـاق الدرب إذ يجتمعون و يناقشون و يقيمون كل شيء يخصّ البلد كيف لا.. وصاحبهم محطّ ثقة و مثالٌ يحتذى .

صفّق المحقق بيديه و لوّح برأسه قائلاً و مستغرباً:

ـ إذاً لم تكن الحالة التي نحن فيها و التي وصل إليها البلد تأتي من فراغ إذا كنتم أنتم المكلفين بتطوير و بناء المجتمع و المؤتمنين على مقدراته تقومون بكل هذه الموبقات و المخالفات فلا عتب إذاً على أولئك الصغار بحجمهم و نفوسهم إن فعلوا ذلك.

اذهب يا رجل لا سامحك الله و أجار الأمة منك و من أمثالك من أعوانك وأذنابك.وسيبقى التاريخ يذكر مفاخركم مادام هناك بشر يعيشون على هذه الأرض الطيبة.

وفي هذه اللحظة تدخّل المحامي مستأذناً كي يقدم ورقة للمحقق والتي تضمنت طلباً بالسماح له بخلوة قصيرة مع موكله.

وافق المحقق و غادر مكانه قاصداً مكتبه كي يخلو بنفسه و يستجمع أفكاره التـي شتّت نتيجة لما سمعه هذا اليوم.

.....

مـن شرفة منزله الكائن في ضاحية مطلّة على العاصمة و كان الوقت ساعة الغسق إذ بـدأ القرص الإلهي يلملم ألسنته متأهباً كـي يعلن أنّ نهاية نهار قد أزفت و بنفس الوقت مستأذناً بسفر يدوم ليلاً كاملاً يتزود من خلاله بطاقة تكفيه نهاراً كاملاً و في خضم مراسم هذا الترحال المهيب شاهد أسراب الطيور و هي تعود إلى أعشاشها حاملة قوتها و قوت صغارها بعد جهد نهار طويل و كـان زعيقها العالي الذي بدأ يخبو رويداً رويداً إلى أن صمت تماماً و نهائياً مع قيام سيل الظلام الغاشم باكتساح آخر خيوط و خطوط النور مطفئاً إياها كيد مارد عملاق تـدير فتيل مصباح محيلة شعلته بقايا جمر ،لامس الأفق في مشهد راقٍ ترفع له القبعات إجلالاً و احتراماً.

و بموجب ذلك تدرجت الألوان الكونية مظهرة تباييناتها بشكل جلي حيث بدأت الخيوط الفاصلة بينها تنسحب شيئاً فشيئاً لينساب السيل الأسود مكتسحاً كل الألوان فارضاً على الكون سكوناً مهيباً وبنفس الوقت مفسحاً المجال لكل الكائنات الحية لتركن نفسها وتعيد ترتيب حياتها وأشيائها تجهّزاً لبدء نهار جديد.

وفـي غياهب هذه اللحظة المهيبة تطلَّع صهر السيّد نحو شخص كـان يجلس قبالته على تلك الشرفة و كان هو كذلك قد أخذ بجلال هذا المشهد البديع و قال له:

ـ ما العمل الآن يا عم أبو أحمد؟

تنبه أبو أحمد و تتطلع إلى الصهر قائلاً:

ـ لقد جئت إلى هنا لنتباحث في الأمر عسى أن نصل إلى نتيجة ما.

ـ هل عندك القدرة على إقناعه و ثنيه عما أقدم عليه.

ـ كلا لقد قمنا بكل شيء بحيث استنفذنا كل السبل و باءت كل محاولاتنا بالفشل كونه كان مصراً علـى ما أقدم بشكل لا مثيل له و هو لا يقبل أن يناقش في الأمر ولمجرد المناقشة.

ـ و ما العمل الآن و هل نتركه و نجلس نراقبه من بعيد.

ـ كلا و إلا ما كنا نستحق لقب الأصدقاء.

ـ إذاً هل عندك أي مقترح؟

ـ نعم لقد جئت بمقترح بالرغم من أنه فاجأني بموقفه هذا و قد بذلت جهداً كبيراً لإقناعه عندمـا قابلته مؤخراً و كان كل قصدي أن أعرف السبب الحقيقي الذي دفعه للقيام بذلك لأنه حتى هذه اللحظة كان يشكل لي و لجميع أصدقائه و كل من حوله سنداً قوياً نعتمد عليه و لاسيما في ظروف يصعب على غيره تلبيتها لها.

ـ ما هو هذا المقترح؟

ـ بعد أن درست الموضوع و قلبته من كل جوانبه تبيّن لي أنه في الفترة الأخيرة كان يتعرض لضغوط كبيرة نتيجة العمل و كذلك كثرة مسؤولياته الأمر الذي أوهن أعصابه و دفعه للقيام بذلك بالرغم من صوابيّة موقفه إلا أنّ التوقيت كان خاطئاً و كذلك تلك الطريقة إذ كان بإمكانه اختيار الوقت و الطريقة المناسبين فيجنب نفسه و من حوله بمن فيهم نحن أصدقاؤه المقربون هذا الإحراج.

ـ لم تقل لي ما هو المقترح الذي توصلت إليه و الذي تأمل فيه خيراً.

ـ أقترح أن نتقدم لهيئة التحقيق بطلب تحيل السيد بموجبه إلى لجنة طبية لدراسة حالته معللين ذاك بما ذكر سابقاً عن الضغوط و الإرهاق الذي عانى منه مؤخراً.

ـ فكرة جيدة رغم أنها ستصدم بمعارضة عمي و عائلته رغم كل ذلك فإن هذا المقترح يبقى الأنسب و الأقرب للواقع و المنطق.

ـ دعنا نجرّب ذلك.

ـ لا بأس لكن قبل كل شيء عليّ القيام بأخذ رأي عائلة عمي بذلك لأنّ هذا الأمر يهمهم وحدهم أكثر من غيرهم و عليهم اتخاذ القرار بشأن ذلك لأنّ شظايا أي تصرف ستطالهم بالذات،كان الله في عونهم.

ـ نعم صحيح كان الله في عونهم و عوننا أيضاً لذا قم بإبلاغهم عسى أن نلقى الرد الإيجابي و نحظى بموافقتهم.

ـ اتكل على الله و سأبلغك بالنتيجة.

ـ حسناً.

ومن ثم غادر أبو أحمد على أن يتصل به الصهر ليبلغه بنتيجة مسعاه.

بعد أن ودّع أبو أحمد عاد الصهر و قصد المكان الذي وضع فيه الهاتف و رفع السماعة و أدار رقم بيت عمه بغية التحدث إلى خطيبته مستطلعاً رأيها في البداية و بموجب ردها يكون له التصرف المناسب.و لحسن حظه كانت هي التي ردّت من الطرف الآخر.قال لها:

ـ عزيزتي كل كياني و قلبي معك و مع أهلك لكن في اللحظات العصيبة يجب على المرء أن يتجلد و يضبط أعصابه و يتحكم بمشاعره كي

يتمكن من تجاوز الظرف و يعرف كيف يتعامل مع المستجدات بروية و تعقّل.

ـ معك كل الحق هل من جديد.

ـ نعم أريد رؤيتك و لأمر هام و سيكون برفقتي العم أبو أحمد.

ـ حسناً سأتصل بك بعد قليل.

أغلق السماعة وعاد إلى جلسته السابقة والوهن يجلل جسده، أسند رأسه على الحائط ومدّ قدميه ليسندهما على حلقة معدنية خصصت لأصيص ورد و استسلم كلياً مطلقاً العنان لخياله مسترجعاً شريط أحداث الأيام الماضية.

هبت نسمة رقيقة حاملة في طياتها طراوة أخّاذة تسللت عبر تنفسه منتشرة في كل مساحة جسده مداعبة أعصابه دافعة أمامها تشنجات استبدت بها لفترة مفسحة المجال لخـدر لذيذ أن يحتل كل شيء.

أيقظه من غفوته هذه رنين جرس الهاتف.انتفض وتمطأ وفرك عينيه ثم قصد الهاتف حيث أتاه الرد من فاتنته التي قالت بصوتها الناعم:

ـ نحن بانتظاركم اليوم مساء الساعة الثامنة.

ـ حسناً سأبلغ العم أبو أحمد و أغلق السماعة و بعد ذلك اتصل بالسيد أبو أحمد ليبلغه بالموعد.

اجتمعت الأسرة مع الصهر و صديق العائلة أبو أحمد و الذين كانوا و رغـم إظهار الارتياح إلا أنّ الإرهاق كان مسيطراً تماماً على الجميع و بالأخص السيدة الفاضلة والدتهم التي بدت علـى وجـهها ملامح ذاك التعب واضحة جلية، كيف لا و هي التي كانت ولوقت قصير محطّ أنظار و مثار

إعجاب كل من قريناتها لما تتمتع به من حيوية و قدرة على الظهور بأبهى حلة و في كل المناسبات أياً كانت مفرحة أم حزينة.

بدأ الحديث أبو أحمد لما له من مكانة عند الجميع دون استثناء قائلاً:

ـ سيدتي و أبنائي أقدّر ما تعانونه و تمرون به من وقت عصيب، لقد صدمت أنا شخصياً نتيجة ما جرى و لكن علينا جميعاً أن نتروّى و نتعقل و نفكر لنجد المخرج المناسب و الآمن لهذه الواقعة فنخفف قدر الإمكان من آثارها السلبية علينا جميعاً.

لذا أحبائي أريد منكم أن تستمعوا لما سأقوله كوني تباحثت به مع صديقي و صهركم العزيز و أن تفكروا به و إن وافقكم و وافقتم عليه نسير به عسى أن يكون مخرجاً مشرّفاً لنا جميعاً و على رأسنا السيد المحترم.

تفضل يا أبا أحمد.قالتها السيدة بكل وقار.

ـ سيدتي المحترمة لقد توصلت و صهركم الكريم لأمر مفاده أن نقوم كلنا بإقناع السيد أولاً ثم هيئة المحققين بما يلي:

ـ ما هو الأمر الذي ستطرحونه على السيد و على لجنة التحقيق؟سألت السيدة.

ـ أن نقدم طلباً لهم بأن يوافقوا على إحالة السيد إلى لجنة طبية نقيّم حالته و بنفس الوقت نمنح أنفسنا نحن بعض الوقت نرتب من خلاله أفكارنا و كذلك نمكّن السيد من مراجعة نفسه عسى أن يعود عما قام به رغم أنّ هذا الاحتمال من الصعب جداً أن يتحقق.

ردّ الجميع معاً:

ـ فكرة حسنة

تابعت السيدة قائلة :

ـ لكن تبقى أمامنا العقبة الكبرى.

ـ ألا و هي موافقة السيد.قالها أبو أحمد.

ـ نعم فهو كما تعرفه عنيد جداً إذ لا يرجع عن قرار اتخذه مهما كانت الأسباب و النتائج وبالرغم من ذلك علينا جميعاً أن نحاول.

ـ نعم علينا أن نحاول جميعاً و أن لا نقف مكتوفي الأيدي حيال ذلك.

ـ جيد نحن نؤيد مسعاكم و فكرتكم لذا قوموا بما عليكم فعله وفقكم الله و كذلك سنقوم بكل ما يقدرنا الله على فعله.

في إحدى القاعات الجانبية في مقرّ التحقيق اجتمع السيد مع كل من أبو أحمد و صهره وكان الوجوم مسيطراً عليهم هم الثلاثة.

بادر أبو أحمد السيد بعبارات ملاطفة تحمل في طياتها الكثير من الود محافظاً علة موقفه مما قام به السيد و تأييده له كون ما قام به هو الصّواب بعينه كما قال.

قاطعه السيد وبفطنته المعهودة سائلاً عن سبب هذه الزيارة الحقيقي إذ إنه استبعد أن تكون زيارة مجاملة روتينية.

عندها دخل أبو أحمد في الموضوع مباشرة إذ قال:

ـ أرجو أن تسمعني جيداً و بدون مقاطعة إذا سمحت.

ـ تفضل يا رجل فأنت صديق قديم وكلّي ثقة ويقين بأنّ كل ما ستقوله وتتفضل به سيكون فيه مصلحتي و صالح أهل بيتي جميعاً كما عهدتك دائماً لذا قل لي كل ما تريد.

ـ شكراً على ثقتك هذه أخي العزيز.

ـ لا داعي للشكر فأنا لا أجامل إطلاقاً و هذا أمر تعرفه جيداً.

ـ أعلم و لكن لكل مقام مقال كما يقال.

ـ دعك من هذه الأمثال و غيرها لذلك قل ما أتيت من أجله أنت و صهري الغالي هذا.

ـ شكراً يا عم... قالها الصهر بشيء من الارتباك.

ـ عزيزي الغالي أنت تعرف كم أحترمك و أجلّك و أقدر كل أعمالك فأنت رفيق دربي وصديق عمري و أستطيع أن أجزم بأنك تكاد تكون الأوحد بالنسبة لي في هذا العالم.

لذا أرجو أن تتقبل كل ما سأطرحه عليك و الله شاهد عليّ أنّ الغاية منه هو مصلحتك أنت و عائلتك كونكم جميعاً عائلتي و كل ما يهمني في هذا العالم.

ـ احكي يا رجل لم كل هذه المقدمات فأنت صديق عمري و ليس عندي أيّ شكّ من ناحيتك فكما سبق و أعلنت لن تقول إلا ما فيه صالحي لذا تكلم يا رجل.

ـ أخي وصديقي جئتك برفقة صهركم العزيز راجياً أن توافق على أن تحيل نفسك إلى لجنة طبية تطمئنّ أنت و نحن على أحوالك لأنه من المؤكد أنك مرهق جداً كيف لا تكون كذلك و أنت لم تمنح نفسك إجازة ولو لفترة

وجيزة منذ مدة طويلة لا أستطيع تحديدها بالضبط لذلك وبناءً على ما تقدم أرجو منك أن توافق على ما طلبته فتطمئننا على صحتك بالدرجة الأولى و بنفس الوقت تأخذ قسطاً من الراحة تركن خلالها لنفسك تعيد ترتيب أفكارك أثناء ذلك بهدوء و روية في مكان بالتأكيد سيكون أفضل من هذا المكان و بعدها ثق تماماً بأني و كل من حولك سنقف إلى جانبك في كل ما ستقدم عليه مهما كانت نتائجه.قالها و هو يراقب حركات السيد و يرصدها بدقة متناهية.

ـ لجنة طبية يا أبو أحمد الغالي!لماذا و هل أنا مريض هكذا تراني بنظرك.إن كنت هكذا تراني فاطمئن أنا لا أشكو من شيء بل أحسّ بنفسي أنني بكامل حيويتي و صحتي و نشاطي لذا لا أجد أنّ هناك من داع لما تفضلت و طرحته، لأنّ الهدوء و السلام الذي أعيشه في هذا الوقت لم أحسّ به منذ أمد بعيد بل أستطيع القول بأنّ ثورة ضميري الذي أرهق نفسي و أعصابي بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً لذا أكرّر وأعيد أنه ما من داع لما تفضلت به و أتعبت نفسك من أجله أنت و صهري العزيز لذا أرجو أن تقبل اعتذاري عن عدم تلبية رغبتك و بنفس الوقت شكري على تعبك.

عزيزي و عمي الغالي لا نريد منك أن تتخذ قراراً الآن بل أريد منك أن تمنح نفسك فترة تفكر بها وبعد ذلك قرّر ما تريد و كما قال العم أبو أحمد ثق تماماً بأننا جميعاً سنقف إلى جانبك و من ورائك في كل قرار ستتخذه مهما كانت النتائج.

ـ حسناً سأفكر بالأمر رغم اقتناعي بعدم جدوى ذلك لأن كل ما قمت به و أقدمت عليه و فعلته وسأفعله لاحقاً كان من وحي ضميري كوني متأكد من صواب تصرفي هذا عسى أن تكون نتائجه خيرة عليّ و على من حولي و بنفس الوقت يكون فاتحة طريق لأمثالي وهم كثر في مجتمعنا.

غادر الزائران بعد أن ودّعا السيد الذي كان في غاية الثبات على موقفه أمامهم و نجاه ما أتوا مـن أجله فبذلك عادا خاليي الوفاض.

و عندما أصبح السيد بمفرده جلس على كرسي جانبي و أمسك رأسه بكلتا يديه كعادته عندما يكون مختلياً بنفسه و يحاول جمع و لملة أفكاره.

بقي على هذه الحالة فترة لا بأس بها مفكراً و مقلباً الموضوع من كل جوانبه إلى أن أصابه الإعياء لذا قام و سار متهادياً نحـو السرير و ألقى بنفسه مطلقاً لأفكاره العنان حيث أغفى.

ولم يستيقظ إلا وعلى النادل وهو يطرق الباب مستأذناً عارضاً خدماته التي لم تلق أي ردّ و تجاوب من السيد. لذا استدار و خرج مغلقاً الباب خلفه.

.....

تسرّب الخبر رغم التكتم الشديد الذي فرضته العائلة و كذلك هيئة التحقيق إذ سرى كالنار في الهشيم حيث تناقلته الألسن ليصل في نهاية المطاف إلى من يهمهم الأمر.بدأ الارتباك يسري في كل اتجاه وفي جميع الأوساط بحيث أخذ كل شخص كانت تربطه بالسيد علاقة من أي نوع كان بسيطة كانت أم كبيرة و خصوصاً من كان لهم معه علاقات عمل و ما شابه من روابط جانب الحذر و الحيطة بحيث بدأت تحركات بالخفاء و عقدت الاجتماعات السرية التي كانت تصرح خلالها كل المستجدات ويتداول في جميع المقترحات و الحلول و غيرها.

كما أنّ جميع خطوط الهاتف الخصوصية و غيرها كانت تشغّل لساعات متأخرة من الليل.الكل يسأل و الكل قلق و الكل خائف و البعض وصلت حالته لحدّ الانهيار كون كل ما كان قد بناه حتى الآن أصبح على كف عفريت إذ أصبح معرّضاً لخطر الزوال في أي لحظة و كل ذلك مرهون بما سيدلي به السيد من أقوال و ما يقوله من معلومات.

لذا بدأ كل شخص يلملم أوراقه و يحاول أن ينأى بنفسه بعيداً عن هذه القضية بأي طريقة و وسيلة كانت طالباً السلامة مهما كانت الأسباب و مهما كانت التكاليف إذ يقدم المرء على التضحية باليسير كي يسلم الكثير و قد يقدم الكثير كي يسلم الرأس و هو أغلى شيء في الوجود.

شكلت الوفود التي أرسلت لزيارة منزل السيد بحجة الوقوف معهم ولكن الغاية منها استشفاف ما كانت قد آلت إليه الحال وبالرغم من عدم تصديق كل ما يقال حسب قول أعضاء الوفود ولكن ما إن يتحققوا من صحة ما أشيع و ما تسرّب حتى يعاودوا مسرعين و لولا أصول اللياقة لغادروا دون أن يسلموا على أهل البيت مودعين. و هنا كما يقال:عند الشدائد

تكشف معادن الرجال.فبذلك ميزت عائلة السيد الصديق المخلص من المنتفع والانتهازي وما بينهما.

إلا أنه كان هناك أشخاص بالفعل يمكن أن يطلق عليهم صفة الأصدقاء وليس بالضرورة أنهم من أوساط السيد الذين ينتمون لفئة الأغنياء بل كان جلهم من الناس البسطاء الذين بنوا علاقاتهم بالسيد و عائلته على أساس الاحترام و التقدير دون أن تكون لمنفعتهم الشخصية وإن وجدت أي تأثير على سلوكهم لذلك نجدهم كانوا يملؤون المنزل صباحاً ومساءً عارضين خدماتهم مبدين استعدادهم للقيام بأي شيء يطلب منهم أياً كان ومهما كان عسيراً.

وفي الجانب الآخر حيث كانت تعقد الاجتماعات التي تداعى إليها المنتفعون و الذين أحسّوا بأنّ الخطر يكاد يداهمهم باحثين عن حلول منقبين عن مخارج قد تنفعهم إن وقعت الواقعة و بنفس الوقت كانوا قد كلفوا فريقاً من قبلهم يحاول الوصول إلى الجهة التي أحيل إليها السيد لإجراء تلك الفحوصات الطبية مستعملين صلاحياتهم و صفاتهم للوقوف على كل المستجدات في حينها ليتم التصرف وفق ذلك و بالسرعة الكاملة.

كذلك عقدت اجتماعات ضمت في كثير من الأحيان فريقاً و كانوا لوقت قصير ألد الأعداء و كون المصيبة تجمع كما يقال فقد جمعتهم هذه المصيبة حسب رأيهم فركنت الخلافات جانباً و حتى العداوات أجلّ البحث بها بحيث أصبح الشغل الشاغل للجميع هو كيفية الخروج من هذا المأزق بسلام أو على الأقل بأقل الخسائر و يستحسن أن تكون مادية.أما في بيوتهم حيث أسرعت تلك الأسر تعدّ العدّة لمواجهة الموقف بحيث قام العديد منهم

بحجز تذاكر السفر لعائلاتهم إلى خارج البلد و بالفعل نفذت العديد من تلك الأسر ذلك بعد أن حملت علناً و خلسة كل ما خفّ وزنه و غلا ثمنه.

أما من لم يتمكن من تنفيذ ذلك فقد باع كل شيء و حوله إلى ذهب و عملات أجنبية و خبأه في مكان آمن وسري ليعود إليه بعد أن تمر هذه العاصفة.و هنا ما لم يكن بالحسبان حيث لجأ العديد من الرجال إلى تسجيل كل ممتلكاتهم وبالإضافة لذلك قاموا بنقل كل أرصدتهم إلى أسماء زوجاتهم وبناتهم.

لذا استغلت العديد من الزوجات هذا الأمر حيث طلبن الطلاق من أزواجهنّ طلباً للسلامة خشية أن تطال رؤوسهم سيوف العدالة و بنفس الوقت طمعاً بما آل إليهن من ثروات بحيث تمكنت كل منهن من أن تبدأ حياة جديدة في مكان آخر من هذا العالم.كما أنّ بعض منهنّ قد بدأت حياة جديدة مع شبان في سنّ أولادهن استرجاعاً لشبابهن الراحل و بنفس الوقت طلباً للمزيد من المتعة و المباهيات و هكذا نجد هذه الحفنة من الناس الذين عاثوا في الأرض فساداً تشتت كقطيع داهمه الذئب في الوقت الذي فقد فيه راعيه.

أما تلك النسوة ممن تلقين تربية صالحة قمن بتقديم كشف حساب للجهات العامة المختصة في تلك القضايا طالبات إنصافهن هن و أولادهن.كما تعرض العديد من أولئك الضعاف لنوبات قلبية أودت بحياة الكثيرين منهم و من بقي منهم على قيد الحياة آلت حالته إلى كرسي بعجلات ينتظر دوراً حدده باري الأكوان.

أما من بقي محافظاً على رباطة جأشه قام بالاتصال بالبقية الباقية من أمثاله و تداعوا لاجتماع تقرر فيه كيفية التصرف لتلافي الوقوع بالمحظور.

وبالفعل تتالت تلك الاجتماعات والتي كانت في الأغلب تدوم حتى ساعات الفجر الأولى والكل مشدود الأعصاب و يترقب.و كانت توضع الخطط الاحتياطية تحسباً لكن كل شيء بقي هادئاً لفترة طويلة نسبياً إذ أن هيئة المحققين تحفظت على السيد ومنعت زيارته من قبل أي شخص سوى أقرب المقربين له ومن بينهم السيد أبو أحمد كون الأخير كان قد وضع نفسه في خدمة القضية واعداً على المساعدة في كل شيء كون ما قام و سيقوم السيد به لاحقاً هو الصواب بعينه كما كان يقول.

في مكتب السيد الخاص جلست السكرتيرة الشخصية له مطرقة ساهمة و هي تسند رأسها على راحة كفها خلف الطاولة و كل جسدها ينتفض وكان تياراً ثلجياً قد لفحها فجأة دون أن تنتبه أو تكون قد حسبت له حساب.

أخذت تطقطق بكعب حذائها على بلاط المكتب طقطقات تعبر عن ما كان يدور في خلدها و ما كان يشغلها.حدثت نفسها متسائلة :

ـ يا ويلي ما الذي سيحلّ بي بعد ذلك بل ما هو مصيري و نهايتي كيف سأواجه أهلي و المجتمع، هل سيغفرون لي استهتاري و تجاهلي لكل أحكامهم و أعرافهم بربط مصيري بذاك السيد، صحيح أنه كان و ما زال يشكل لي سنداً قوياً و أفقاً عقدت آمال حياتي عليه فألقيت بنفسي بكل ثقلها في لجج بحره الذي بدا لي و لفترة طويلة آمناً لا خطر منه

وهنا استرجعت شريط ذكرياتها لسنوات طويلة فاتت إذ كانت فتاة عادية وكغيرها كانت تنحدر من وسط شعبي فلاحي إذ عاشت سنيّ طفولتها ويفاعتها في كنف والديها المكافحين المقيمين في قرية جل مواردها مما ينتجه الحقل وهذا يكفي للدلالة على المستوى المادي الذي كانت تعيشه

هذه الأسرة بـل و كـل الأسر التي ضمها ذاك المحيط.و مـا إن استحصلت على الشهادة الثانوية حتى قررت و بدعم من والدتها بأن تكمل دراستها الجامعية.

وبالفعل انتقلت من ذاك الوسط المتواضع إلى ذاك الوسط الواسع جداً.كانت شابة في مقتبل العمر تتمتع بطلة بهية وقدّ ممشوق كونه عمل الحقل و قّدته أشعة الشمس و نسمات الصباح الباردة.

وبالإضافة لمـا تقدم كانت تمتلك مسحة من جمال وذكاء ظاهر وسرعة بديهة تسحر وتثير انتباه كل من يقف أمامها و يتعامل معها بشكل مباشر من الوهلة الأولى.

تخرجت من الجامعة إذ حملت إجازة في إدارة الأعمال و كان قد تمّ تعيينها في إحدى قطاعات الدولة و التي كانت تابعة أصلاً للإدارة التي تقع ضمن صلاحيات السيد.تسلمت عملها في مكتب الاستقبال هناك.

وما إن باشرت عملها حتى أتقنته في زمن قياسي بالنسبة لمثيلاتها من السكرتيرات الأمر الذي أدى إلى لفت انتباه كل المتعاملين معها زملاء كانوا أم مراجعين عاديين ممن يرتادون هـذه الدائرة بشكل يومي تقريباً.

وكان على رأس هؤلاء مدير تلك الدائرة الذي كان قد سحره حسن تصرفها ولباقتها ودماثة خلقها مما دفع به لنقلها وتعيينها كسكرتيرة شخصية له تتولى ترتيب كل متعلقات مكتبه الخاص تناقلت الألسن سيرتها مع شيء من التضخيم ليعمّ كـل الإدارة بأقسامها و منشآتها إلى أن وصل ذاك الصيت لمسامع السيد شخصياً وكان لفعله الخير من المتملقين الدور الأكبر في ذلك.إذ أخذ كـل منهم يقترب ويبعد ويبهر ويزيد على مواصفاتها

صفات أخرى وحسب ما كان يقول أنه اكتشفها بنفسه الأمر الذي أثار حفيظة السيد و دفعه لمعاينة هذه الظاهرة الفذة والتي شغلت الجميع.

تعمّد السيد المرور بتلك الدائرة و بشكل مفاجئ مروراً اتخذ طابع الزيارة التفتيشية الدورية وكان أول ما فعله أن دخل مكتب الاستقبال الخاص بمدير تلك الدائرة بحيث كانت أول من لاقاه مرحبة بوجـه بشوش يدخل مرآه في نفس الشخص برودة منعشة تريح الأعصاب و النفس أيضاً.قدّمت نفسها قائلة:

ـ سلوى ماجد مسؤولة الاستقبال هنا وفي خدمتكم دائماً سيدي.

ـ أهلاً و سهلاً.كم مضى على تسلّمك هذا العمل؟

ـ ثلاثة أشهر تقريباً.

ـ هل أنت مرتاحة هنا؟

ـ الحمد لله سيدي.

حسناً.وغادر ليتابع جولته على بقية أقسام الدائرة لينتهي به المطاف في مكتب مدير تلك الدائرة وفي قاعة الاجتماعات تحديداً وضمّت الجلسة بالإضافة لمدير تلك الدائرة رؤساء الأقسام و المكاتب جميعاً مع سلوى هذه.

ترأس السيد الاجتماع ملقياً فـي البداية عليهم كلمة موجزة كـانت معبرة إذ تضمنت عبارات رائعة كان ملك من يتقن صياغتها و كان بين الجملة و الأخرى يطرفها بعينه وعند كل تلافي

ـ للمقلتين يترك أثراً ولولا قوة ومتانة أعصاب السيد لارتبك وتلعثم.بعد أن أنهى السيد كلمته التوجيهية تلك التفت إلى المدير طالباً منه صرف الجميع عـدا سلوى إذ عقد اجتماعاً ثلاثياً وكـان ملفت للنظر كونه دام لفترة

وجيزة انتبه خلالها المدير للاهتمام الذي كان يبديه السيد حيال سلوى.لذا سارع لإلقاء سيل من المديح لها أمام السيد و على مسامعه مبرزاً سجاياها و ما تتمتع به من صفات تمكنها مـن حيازة الثقة بامتياز.

هزّ السيد رأسه إعجاباً ومتابعة لدوره حمّلها توجيهاته وبعدها طلب منها المغادرة كـي ينفرد بالمدير لفترة بسيطة بعدها غادر بكل مهابة وصورة تلك الفتاة معششة في مخيلته متشبثة به تمسّك من لا يريد المغادرة و الإفلات أبداً.

.....

أجفلت سلوى تلك الحركة التي نتجت عن فتح باب مكتبها ودخول أحد مدراء الدائرة الكبار والذي بدا لها و كأنّ ألف عفريت تعلق بركابه وأمسك بتلابيبه.سألته بتوجس:

ـ ما هي آخر الأخبار أستاذ محسن؟

ـ طامة كبرى ستغرقنا جميعاً إن لم نؤمن أنفسنا ونتصرف بسرعة.

ـ أين يتواجد السيد الآن؟

ـ في مقرّ صحي يتم الكشف عليه ودراسة حالته.

ـ لم؟ هل يشكو من شيء؟

ـ كلا ولكن هذه إجراءات لابد من إتباعها في مثل هذه الحالات.

ـ خسارة.

ـ خسارة فقط بل كارثة فلنتكاتف ونوحد جهودنا لاجتيازها بأقل الخسائر ويستحسن إن وقعت أن تكون مادية لأنّ سمعتنا وسمعة عائلاتنا ومستقبلها على المحك.

ـ صحيح.ماذا سأقول أنا.وصمتت.

ـ أنت وما هي علاقتك بالأمر فأنت لن يمسّك مكروه إطلاقاً كونه لا تربطك بالسيد أي علاقة سوى علاقة العمل .

هزّت رأسها دون أن تنطق بأية كلمة.استدار ذاك المدير وبعد أن أخذ ما حضر لأجله ومن ثم كلمها ببعض الأمور وغادر.جلست على كرسيها كمن ضرب على مؤخرة رأسه بعصا غليظة إذ أخذت أنفاسها بالتسارع كونها تيقنت من أنّ المصيبة لا مجال واقعة.

سوّت جلستها وأسندت رأسها على كفها مسترجعة ما بقي من شريط حياتها منذ أن غادرت قريتها تاركة أمها ووالدها الكهلين المكافحين كي

يجنبوها وأخوتها حاجة السؤال وبالأخص الأقارب إلى أن أصبحت السكرتيرة الشخصية للسيد.

لأنه وبعد تلك الزيارة التفقدية التي قام بها السيد لتلك الدائرة وعندما عاد إلى مكتبه حيث جلس مسترخياً و مسترجعاً بعضاً مما مرّ به وأمامه طيلة هذا اليوم والذي كـان طويلاً بكل المقاييس.إذ قفزت وبدون استئذان صورة سلوى إلى مخيلته وهي تدير تلك الجلسة ببراعة كقائد ملك زمام المعركة ووقف وسط الميدان شاهراً سيفه علامة النصر.ابتسم محدثاً نفسه :

ـ كم هي بارعة ورائعة تلك الفتاة وكم تملك من المقدرات والمواهب إذ لا يستطيع أي شخص يقابلها إلا ويقع متأثراً بسحرها.

وعندها تحرّك فجأة ورفع سماعة الهاتف ليطلب مـن مديرها أن يعدّ أمراً بنقلها كي تتولى منصب مدير مكتب المدير العام.وبالفعل ما إن باشرت عملها وبالبراعة والإتقان ذاته حتى لفتت أنظار كل من احتك بها من موظفين ومتعاملين حيث لم يمض على وجودها إلا أيام حتى أصبحت السكرتيرة الأكثر شهرة في تلك الدائرة.

حضر أحد المهتمين والذي كـان قد انتدب من قبل المجتمعين إلى مقرّ المركز الذي تجرى فيه للسيد تلك الفحوصات الطبية وقام بمقابلة الأطباء المشرفين على علاجه وفحصه ولكن عبثاً إذ لم يستطع أن يحصل منهم على أية معلومة نهائياً ولا حتى استطاع استشفاف أي شيء يخص السيد وذلك لشدة و صرامة التعليمات التي تحظر وتمنع أي شخص كان من مقابلة السيد أو أن يعطى أية معلومة تخصه وكل ذلك كان مصدره مكتب التحقيق الذي هدف من كل ذلك حماية السيد وبنفس الوقت ضمان سرية التحقيق.

بذل ذاك المندوب جهداً مضنياً فـي سبيل ذلك ولكن دون جدوى بحيث عـاد ودعا لاجتماع طارئ.

لبّي على الفور وبالسرعة الكلية بحث الموضوع واتخذت القرارات التالية:

إذ عليهم إرسال وفد منهم لمقابلة عائلة السيد للتفاهم معهم على صيغة تجنبهم جميعاً عواقب قد تكون مدمرة.

اجتمعت الأسرة بالوفد وبحضور السيد أبو أحمد باعتباره صديـق العائلة المقرّب إضافة للعلاقة التي تربطه بمعظم أعضاء الوفد.طرحت الأفكار أثناء الاجتماع حيث درست و قلبت من كل جوانبها بحيث على أمر.نص الأمر التالي:

تقرر أن يقوم الوفد بمساعدة العائلة بمحاولة أخيرة لإقناع السيد بأن يعود عـن قراره هـذا الذي هزّ كيانهم جميعاً.

غادر الوفد المنزل وكلهم أمل بأن يقوم أفراد أسرة السيد بتنفيذ ما تمّ الاتفاق عليه.

اجتمعت تلك المجموعة بالبقية والذين كانوا قـد علقوا اجتماعاتهم ريثما يعود الوفـد ملتهين باحتساء شراب مريح للأعصاب ولو لفترة وجيزة كون الفترة العصيبة لم تزل في بداياتها.

أبلغ أعضاء الوفـد المجتمعين بنتائج اللقاء الذي تمّ في منزل السيد حيث أبلغوهم بأنّ السيد أبو أحمد كان حاضراً و قـد لعب دوراً إيجابياً يشكر عليه.

ـ هذه عادة أبو أحمد.قالها أحدهم.

ـ نعم هو صديقنا جميعاً و تهمه أمورنا.ردّ آخر.

ظهرت علائم الرضا و الراحة على وجوه المجتمعين إذ كان ما تمّ التوصل إليه مع عائلة السيد قـد يكون فيه الفرج لكن وتحسباً للظروف وما يطرأ لاحقاً تقرر إبقاء الاجتماعات قائمة وكذلك تمّ الاتفاق على وضع خطة بديلة فـي حال فشلت محاولة الأسرة مع السيد أبو أحمد وكان مفادها أن يحال السيد إلى مصحة خاصة لفحص حالته النفسية والعقلية فبذلك يمكن أن يضمنوا ترقين التحقيق و لو لفترة بسيطة يستطيعون من خلالها البحث عن حل أو حلول لكل المستجدات وهم كانوا بنفس الوقت يعرفون بأنّ تقرير ذاك المصح يستلزم وقتاً كبيراً وطويلاً قـد يمتد لشهور عـدة،فتصاد عدة عصافير بحجر واحد.

وبالفعل استحصلت الأسرة على إذن بالمقابلة التي ما إن تمت حتى بدأت جولات تشبه المعاركة لإقناع السيد بالعدول عن قراره هذا لكن دون جدوى بالرغم من كل الجهود التي بذلها كل مـن قابله بعد ذلك إذ تكرر ذلك اللقاء مرات عدة لذا عـاد الوفد ليعقد اجتماعاً تقرر فيه تنفيذ الخطة الاحتياطية التي تمّ وضعها مسبقاً.

ولتنفيذ تلك الخطة تدخلت جهات عدة ممن لهم نفوذ كبير في هذا البلد مستخدمة نفوذها لدى لجنة التحقيق كي توافق على إحالة السيد إلى مصح خاص ليتم دراسة حالته الصحية و من كل النواحي وبالأخص العصبية.

بذلت جهود عدة وكثيرة من قبل العائلة وكذلك من الوفود التي تتالت زيارتها له لإقناعه ولكن وفي النهاية ورغم معارضته الشديدة وافق السيد بعد موافقة اللجنة على مضض كونه أحسّ بريح مؤامرة تدبر له كـي يتم إبعاده

عن واجهة الأحداث وعن أعين الفضوليين الذين ودائماً لا همّ لهم إلا إشاعة الفوضى وخلق البلابل.

ولظروف العمل وطبيعة عملها كسكرتيرة وكذلك لوضعها الشخصي حيث كانت تقيم بمفردها كونها بعيدة عن أهلها الأمر الذي فتح لها المجال واسعاً لأن تمضي جلّ وقتها في المكتب أو خارجه لمتابعة العمل حيث يتواجد السيد.

إذ ولما تم ذكره فرضت عليها الظروف أن تلازم السيد ساعات طويلة يومياً، وهذا ما قام السيد باستغلاله جيداً بل وأحسن استغلال والذي كان سيد من يستغل ويقتنص الفرص لـذا بدأ باصطحابها في معظم جولاته وتحركاته ضمن هذه المدينة وخارجها بل وتعدى ذلك بأن اصطحبها في مهام خارجية عدة وكانت في كل تلك المراحل تدير كـل اللقاءات والاجتماعات بدقـة وبراعة لا مثيل لها وبالأخص عندما كانت تشرف على مآدب الغداء والعشاء.

وبالطبع كانت الهدايا تنهال عليها من قبل المتعاملين الذين تهافتوا عليها من كل حدب وصوب طمعاً بالحصول علـى فرص ومكاسب شخصية.

وكانت من تلك الريوع تخصص جزءاً ترسله إلى أهلها كمساعدة على الحياة بذلك تمكنوا منرفع وتحسين مستوى معيشتهم بعض الشيء.مرت الأيام على هذا المنوال الأمر الذي أدى لأن تتوطد علاقتها بالسيد والتي تطورت لتصبح أكثر حميمية لدرجـة أصبح مـن الصعب على كليهما الفكاك والتخلص منها.

وكـان من نتيجة تلك اللقاءات والتي كـانت تتم معظمها خـارج نطاق وأوقات العمل الرسمية كما أنّ بعضها كان وللظروف المذكورة يتم حتى خارج البلد كونها كانت ترافقه في مهماته الخارجية أيضاً إذ تكون تلك الرحلات

التربة الخصبة لزيادة الألفة والتقارب فيما بينهما كونها قد تدوم لأيام عدة وفي بعض الأحيان كانت تدوم أسابيع.

الأمر كله أدى بهما للبحث عن سبيل منطقي وشرعي لتكون العلاقة أكثر شخصية تلبية لرغبة عارمة تعصف بداخلهما ومن سابع المستحيلات حدها و مقاومتها.

ذات يوم أبلغها السيد وقبل إنهاء الدوام الرسمي بأنّ عليها أن تتحضر هذا المساء لتلبية دعوة كان قد تلقاها من قبل بعض من أصحابه ذوي المصالح والذين تعرفهم جميعاً إذ التقت بهم مرات عدة و في ظروف مشابهة وما أكثرها إذ إنّ كل بل ومعظم الصفقات تتم عبر وخلال هكذا لقاءات ودعوات.

ـ أين سيتم اللقاء؟

ـ خارج المدينة على أرض مزرعة السيد" ضياء "الخاصة أنت تعرفينها جيداً.

ـ أليست تلك التي أمضينا فيها سهرة رأس السنة الماضية.

ـ نعم هي بالذات.

ـ وهل ستتأخر هناك؟

ـ حسب الظروف لذا عليك أن تحتاطي للأمر.

ـ حسناً جيد أنك قد نبهتني لذلك.

ـ لا أريد أن أكرر وصاياي إذ عليك أن تبيضي وجهي كعادتك.

ـ لا عليك سأكون عند حسن ظنك كما عهدتني تماماً.

ـ هذا أملي فيك.وغادر.

غادرت المكتب بفكر شارد إذ إنها أحست بأنّ شيئاً ما سيحصل هناك.حدثت نفسها قائلة وهـي تجلس في المقعد الخلفي لسيارة الشركة التي تولت أمر إيصالها إلى منزلها:

ـ ستكون هذه السهرة كمثيلاتها لم هذا القلق ستمر كما مرت مثيلاتها وسأحصل على الهدايا والهبات كما في كل مرة.

وصلت بيتها حيث كانت تسكن فتحت الباب ودخلت وما إن أغلقته حتى أحست بوحدة خانقة إذ إنه كل يوم وبعد نهار حافل باللقاءت والحوارات والردود على الهواتف العديدة تعود إلى هـذا المنزل البارد الذي تلفه الوحدة من كل جوانبه كيفما دارت فيه.

ـ لعن الله الوحدة فعلاً إنّ الوحدة قاتلة هكذا قال مـن سبقنا وهم محقون.

ـ فعلاً إنّ الوحدة قاتلة.قالتها وهي تقصد المطبخ حيث فتحت البراد لتخرج وعاء كـان فيه طعام بارد سخنته وأكلت منه دون شهية ومن ثم قامت واستلقت على سريرها حيث نامت كيف ومتى لم تعرف إلى أن رنّ جرس الهاتف وكان ذاك الحاجب المطيع الخدوم الـذي يمضي معظم وقته يـدور حولها واضعاً نفسه تحت تصرفها يذكرها بالموعد اليوم قائلاً:

ـ لا تنسي الموعد سيدتي.

ـ شكراً لك أبو شاهر الموعد ببالي.

ـ هكذا إذاً إلى اللقاء.

ـ مع السلامة لا تنسى أن تحضر غداً باكراً كي نرتب المكتب.

ـ حاضر ولا توصي حريص سيدتي الغالية.

ـ مع السلامة.

وأغلقت سماعة الهاتف حيث بدأت بتجهيز نفسها تأهباً لسهرة الليلة.

عند المساء حضرت سيارة مدير الشركة لتقلّها إلى حيث ستقام تلك الوليمة المنشودة.والذي كان مكانها يقع خارج المدينة ضمن منطقة رائعة الجمال إذ يعم الهدوء وتكثر الأشجار وجداول المياه التي تنبثق من سفوح سلسلة الجبال المجاورة لتلك المنطقة.

وما إن وصلت حتى اقتيدت من قبل المشرف على ذاك المنزل إلى مكان وسط الحديقة جهز بشكل رائع لجلسة شاعرية ساحرة.

جلست ورفعت رأسها إلى الأعلى لترى القمر المعلق كمشعل أحمر فوق الأرض ناثراً ضياءه على الأوراق المتدلية من الأشجار محيلاً نضارة لونها ليصبح باهتاً مثيراً للشفقة.

أحضر النادل وعاء نبيذ ووضعه على الطاولة حيث انعكست أشعة القمر من خلاله فبدا كحجر ياقوت متوهج.

وما هي إلا لحظات حتى إلتمّ الشمل حول تلك المائدة العامرة بما لذّ وطاب.

إذ وعلى الفور تبودلت الأنخاب حيث كل من الحاضرين قام بتحية شخص آخر على الجهة المقابلة من الطاولة رافعاً كأسه على سبيل المجاملة واستمرت الحالة هكذا إلى أن تسلل الخمر إلى الرؤوس بحيث انطلقت الألسن بالعبارات اللطيفة والمنتقاة بدقة إلى أن اختتمت تلك المأدبة بلمسات أخيرة وضعت لاتفاقات ستنفذ بدءاً من صباح اليوم التالي وكان من نصيبها كمّ

هائل من الهدايا مع بعض الشيكات كعربون محبة وصداقة مـن قبل أولئك الذين يعرفون كيف يقدرون قيمة الأشياء حقّ قدرها.انتهت تلك المأدبة بحفلة رقص و سكر متحولة إلى وصلة مجون بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.غادر كلٌّ في سيارته الخاصة حيث كل السائقين وبعض المرافقين بانتظار المحتفلين خارجاً.

أصرّ السيد أن استقل سيارته كـي نعود سوياً.

رضخت لأنّ الخمر كان قد سيطر عليه تماماً فبدا أكثر دماثة ورقة من أي وقت آخر إذ انطلق لسانه ملقياً عبارات رقيقة ناعمة تسلب لبّ كـل فتاة.

انطلقت السيارة مسرعة وهي تسلك طريقاً غير الطريق الذي كنا قد أتينا منه وكذلك ليس في اتجاه مكان سكنه استفسرت منه مستغربة الأمر.

لم يجب بل وضع سبابته على فمي أي اسكتي.

سكتّ مستسلمة إذ لا حول لي ولا قوة وكوني لا أعرف ما ستؤول إليه هذه السهرة لذا بقيت هكذا صامتة.

استمرت السيارة تخبّ الطريق خبباً لدرجة أني أحسست كل الأرض تهرب عائدة إلى الخلف ببشرها و شجرها.

بقينا هكذا فترة لا بأس بها ما لبثت السيارة أن انحرفت سالكة طريق يعود إلـى البوابة الجنوبية للمدينة ومـن الطريق العام هذا انحرفت لتسلك طريقاً فرعياً يجتاز أراض زراعية إذ شاهدت ذلك من نافذة السيارة التي أبطأت سرعتها كون الطريق هذا ضيق ويحوي العديد من الانحناءات والالتواءات.

مضت فترة من الزمن إلى أن وصلنا مدخل مزرعة كبيرة عرفت ذلك من سورها وبوابتها العالية وكذلك ما كان قد بان من رؤوس الأشجار خلف تلك الأسوار.

وعند تلك البوابة حيث وقفت السيارة تراكض الحراس مرحبين بالسيد فـي حين قام بعضٌ منهم بفتح مصراعي البوابة لتدخل بنا السيارة سالكة درباً جوانبه بأشجار شذبت بطريقة فنية أظهرتها بأشكال هندسية رائعة المظهر والشكل أما سقفه فقد غطي بعرائش العنب تدلت من قيدها كثريات الذهب كما قال جبران.

توقفت السيارة أمام مدخل بناء أشبه ما يكون بقصور نبلاء العصور الوسطى حيث الدرج الرخامي العريض والذي ركن إلى جانبيه تمثالين لأسدين من الحجر الأبيض أما في نهايته فقد وضع تمثالين لآله لا أعرف ما اسمها.

أما البوابة الخشبية فقد كانت من العلو والضخامة والفخامة بشكل يصعب على أمثالي وصفها.

ترجل السائق وفتح الباب للسيد بينما بقيت مكاني و كـل قناعتي أنّ السائق بعد أن ينزل السيد سيقوم بإيصالي إلى منزلي وهذا هو المنطق.

لكن ما حدث كان مغايراً تماماً إذ نزل السيد ودار حول السيارة ليفتح لي الباب وبكل تواضع أشار إليّ بأن أنزل وأترجّل.استغربت الأمر لكنه ألحّ عليّ بإشاراته أي بأنّ عليّ أن أترجل وأرافقه حيث يذهب وكانت الجهة التي لم تزل يـده اليسرى تشير إليها هـي هذا المكان الفخم.

نزلت حاولت أن أتكلم قاطعني بإشارة من إصبعه حسبت وضعها على فمه وكان لم يزل يشير إليّ بالتقدم عندها تأكدت أنـه مصرّ عليّ أن أنفذ رغبته.

سرت إلـى جانبه وبدأنا نصعد الدرج العريض وهو يستند على كتفي كشيخ سار برفقة حفيد إلى أن وصلنا ذات الباب الكبير و هنا تكلمت قائلة:

ـ الآن أستأذن أنا بالانصراف سيدي.

ـ لا لقد تأخر الوقت ومن المريب أن تعودي إلى منزلك الآن لذا أرجوك أن تقبلي ضيافتي لهذه الليلة.

ـ لا يصح يا سيدي.

ـ لا عليك لا تخافي من شيء البيت يعج بالخدم وستنامين مع مشرفة المنزل وهي سيدة كبيرة وطيبة.

عندها شعرت بشيء من الأمان لذا وافقت ورافقته ودخلنا بهواً كبيراً أسس بأفخر المفروشات الشرقية والغربية.

طلب مني أن أجلس على أريكة ريثما تحضر المشرفة التي كان قد أرسل بطلبها والتي ما إن

أقبلت بوجهها البشوش المفعم بالطيبة حتى بادرها قائلاً:

ـ يا أم مصطفى هذه الآنسة سلوى سكرتيرتي الشخصية تولي أمرها لأنها ستنزل في ضيافتنا هذه الليلة.

ـ حاضر يـا سيدي أنت وضيوفك على رأسي من فـوق.قالتها بلهجتها المحلية الحلوة.

اذهب سيادتك و استرح ودع الأمر لي كن مطمئناً.

ـ شكراً أم مصطفى لا أريد أن أوصيك بيضي وجهي مع الآنسة سلوى "ها..ه".

ـ كن مطمئنّاً فكل شيء سيسير على أحسن ما يرام.

ـ حسناً قالها وهـو يصعد إلى الطابق العلوي عبر درج داخلي فرشت أرضيته بسجادة رائعة الجمال وحفت جوانبه بحاجز معدني طعم بقطع زخارف رائعة الجمال.

تسامرت قليلاً مع السيدة أم مصطفى حيث كانت هي المبادرة بالكلام واستشفّيت من ذلك أنها تريد أن تمرر بعض الوقت لسبب أجهله ولكني ما لبثت أن عرفت السبب ألا وهو أنها كانت تريد أن تمنح السيد بعض الوقت كي يستسلم للنوم وبعدها تقوم بما عليها فعله.

وكانت قد سألتني عن اسمي الكامل من أين أنا وهل أهلي معي أم أعيش بمفردي وبعض الأسئلة الاعتيادية والتي تطرح في مثل هكذا حالة إلى أن أصبح الوقت مناسباً.

قالت لي و هي تقف:

ـ تفضلي يا ابنتي لأدلك علـى غرفتك حيث ستنامين.

وقـادتني باتجاه الطابق العلوي حيث أوى السيد.ارتبكت قليلاً لكنها سحبتني من يدي قائلة:

ـ تعالي لا تخافي فأنا أنام في نفس الطابق.

ـ ألم نزعج السيد بذلك؟

ـ كلا.قالتها وهي تفتر شفتيها عن ابتسامة معبرة وكانت لم تزل تمسك بيدي وهي تشدني.

رافقتها إلى أن وقفنا أمام باب قامت بفتحه وهي تقول:

ـ هذه غرفتك تفضلي بالدخول.

دخلت وهي من ورائي حيث قادتني باتجاه خزانة وفتحت إحدى الأبواب لتخرج قميص نوم ثم قالت:

ـ هذا لكِ،بدلي ثيابك.ثم أشارت بعدها نحو باب جانبي في الغرفة وقالت:

ـ هذا يودي إلى الحمام.

ـ خالتي أم مصطفى أكرر ألم نزعج السيد بذلك؟

ـ لا يا ابنتي الآن هو فـي سابع نومه كما يقول المثل الشعبي.

ـ وإن أردت أن تتأكدي تعـالي و انظري بعينيك.

وسحبتني من يدي خارجاً حيث سرنا سوية حتى وصلنا إلى باب كان السيد ينام خلفه وبالفعل سمعت شخيراً عالياً يصدر من هناك.

وفي هذه اللحظة نزلت السكينة إلى قلبي وعدت إلى غرفتي مرتاحة مطمئنة.

غادرت أم مصطفى الغرفة وهي تقول:

ـ لا تخجلي من طلب أي شيء فالسيد لا يأتي إلى هنا إلا عندما تكون حالته كما رأيته إذ أنه يخشى السيدة الكبيرة.

ـ هل يلزمك شيء يا ابنتي؟

ـ شكراً يا خالتي.

ـ تصبحين على خير.

ـ وأنت كذلك.

وبعد أن أصبحت أم مصطفى خارج الغرفة قمت بإغلاق الباب وراءها وعدت حيث قمت بتبديل ثيابي واستلقيت في السرير الذي كان مريحاً لدرجة أني استسلمت لنوم عميق على الفور.

وفي ساعة متأخرة من الليل أيقظتني حركة مقبض الباب وهو يدار ليفتح الباب ببطء و ما إن أدرت مفتاح المصباح المجاور لسريري وإذ بي أرى السيد واقفاً داخل الغرفة بالقرب من الباب وكان يرتدي روباً مخططاً.

قسته بنظري من رأسه حتى طرف روبه السفلي لأرى ساقيه العاريتين.

إذ كـان يلبس شبشباً قماشياً فـي قدميه.

أذهلني الموقف بل أزعجني هـذا الذي أشاهده حاولت أن أنطق إلا أنـه أشار إليّ بإصبعه حيث وضعها على فمه وهو يقترب مني إلى أن أصبح عند حافة السرير الذي انكمشت على نفسي في الزاوية الثانية الأخرى وأنا أمسك بأخمص قدمي وكانت الرعشة تسري في جسدي تطورت لأن أصبحت رجفات هزت جسدي وظهرت بشكل جلي على شفتي اللتين بدأتا تهتزان.

جلس على حافة السرير وهو يبتسم محاولاً تهدئتي و أطلق بعض العبارات التي حملت في طياتها شيئاً مـن الرقة و اللطافة وفي الوقت ذاته مدّ يده لي وهو يقول:

ـ لا تخافي هاتي يدك اقتربي لن أؤذي مشاعرك أبداً.

بقي هكذا لفترة اضطررت خجلاً أن أقترب وأمدّ يدي التي وما إن أمسكها بيده حتى سرت فيها سيالة دفءٍ أخذت تنتشر في جميع أوصالي طاردة أمامها برودة كفي ومـن كل جسدي أيضاً.

اقتربت أكثر منه مستجيبة لحركة يده إذ كان يجذبني بهدوء إلى أن التصقت به حيث لامست ركيته العارية أعلى فخذي عندها و على الفور سرت قشعريرة مجتاحة كل أنحاء جسدي صعوداً إلى رأسي دافعة أمامها حمرة قانية استقرت أعلى وجنتي مندمجة مع حرارة بثتها تلك الشعلة التي كـانت قـد أوقدتها تلك اللمسة.

أمسك كتفي بكلتا يديه وهو ينظر في وجهي محدقاً في عينيّ اللتين اشتعلتا بحرقة أسالت دمعهما الذي انساب على خدي كبخار تكثف في آخر مرحلة ليسقط ندى يروي ظمأ وجنتي الملتهبتين أصلاً.

أفلت يديه وأطلق العنان لذراعيه كي تضماني بشدة و تشداني نحوه في محاولة لإدخالي فـي جسده مقرباً شفتيه مـن رقبتي لدرجة شعرت بأنفاسه الحارة تدغدغ كياني.

قرّبهما أكثر مزيداً بذلك الدغدغة التي عملت بكياني و وعيي عمل يد أخذت تحل عقد خيط تعثر سيره وتوقفت حركته و التي مـا لبثت أن سلست وسارت بحركة تسلل معها وعيي عابراً نافذة مشاعري التي أدار رتاجها سيل مشاعر جارف قادنا أمامه إلى منحدر لنسقط وبإرادتنا في هاوية سحيقة القاع الذي ما إن وصلنا إليه حتى عادت تلك الأفاعي الخرافية ذات الرؤوس المتعددة القهقرى مبتلعة ذاك الستار الغبش مفسحة المجال لشعاع مـن الوعي كي بفتح ثغرة تغزوا من خلالها تلك الأشعة مداركي لتعيد مـا

كان قـد تسلل منها خارجاً إلى موقعه ليتثنى له قفل تلك النافذة التي أتت بكل هذه الريح.

جلسنا سوية على السرير وكـل منا يحاول ستر ما ظهر من جسده بوجوم من صفعه نبأ مفجع.

التفت نحوي وشدني بقوة إليه بيده اليسرى ومداعباً شعري و وجنتي بيده اليمنى ومن ثم ضمني إلى صدره بكل حنان وحب.

ثم أنزل يده ليمسك بذقني وليدير رأسي كي يتمكن من رؤية وجهي وعندها رنا إليّ للحظات ثم قال:

ـ لا عليك سنسوي الأمر.

ـ كيف؟

ـ سأكتب عليك ولكن بشكل عرفي مؤقتاً.

ـ وأهلي وكذلك كل من حولي.

ـ هذه مهمتك بل كل مسؤوليتك إذ عليك أن تتكتمي وأن لا تبوحي بذلك لأي شخص كان و مهما كانت درجة صداقته وقرابته حتى يحين الوقت المناسب فنعلن ذلك دون خوف.

ـ متى يكون ذلك؟

ـ اطمئني سوف يكون قريباً بل قريباً جداً إن شاء الله.

ـ حسناً قلتها وأنا ألملم نفسي وأنزل عـن السرير قاصدة الحمام وعندها غادر الغرفة بعد أن مسح بيده على شعري دون أن يقول شيئاً.

وبالفعل في اليوم التالي ذهبنا سوياً إلى حيث يقيم شيخ وقور الذي قام بإبرام عقد زواج عرفي سلمني إياه كضمان لـي وإثبات لحسن نيته تجاهي الأمر الـذي أفرحني كثيراً لأن الشك الذي نخر عقلي وقلبي حرمني النوم

تلك الليلة كون كل الأفكار التي كانت تهاجم مخيلتي كانت مفزعة بل أكثر من ذلك كانت مرعبة.

عندها وكمن رشّ بماء وهو غافل قامت فجأة من على كرسيها وحملت حقيبة يدها وغادرت بسرعة كمن يهرب من شيء مرعب،قاصدة منزلها الذي وما إن وصلته حتى بدأت تبحث عن صورة ذاك العقد إلى أن وجدته أخيراً عندها تنفّست الصعداء كونه طوق النجاة الوحيد المتبقي لها وخصوصاً في هذه الفترة الحرجة.

فتحت تلك الورقة وقرأت حيثياتها وكأنها تقرأها لأول مرة ومن ثم أعادت طيها لتضعها في جيب محفظتها الجانبي.

وبعد ذلك غادرت البيت قاصدة ذاك المصح الذي كان قد أحيل إليه السيد حيث طلبت إذناً بمقابلته حيث قدمت نفسها على أنها سكرتيرته الشخصية وقد تساعد كثيراً في مثل هذا الوضع.

وعندها وبموجب ذلك سمح لها مدير المصح والذي كان في الوقت ذاته رئيساً للجنة الأطباء الذين كانوا يباشرون حالة السيد إذ أعطاها إذناً دائماً يخولها زيارة السيد في أوقات محددة على أن تعود إثر كل زيارة لتدلي بكل مستجد قد يساعد في حل هذه المعضلة.وافقت على ذلك حيث حمّلها بعضاً من التساؤلات والتي عليها أن تستحصل من السيد وبطريقتها الخاصة على الإجابة عليها.

دخلت عليه غرفته حيث كان مستلقياً وما إن رآها حتى هبّ واقفاً حيث نزل عن سريره وخطا نحوها خطوات أقرب إلى الركض وضمها كطفل لاقى أمه بعد أن تاه لفترة.

ظلا هكذا لفترة كـانت خلالها تمسح على ظهره بكفيها إلى أن انفكت العقد.

أمسك يدها وقادها ليجلسا على حافة السرير و كل منهما ينظر في عيني الآخر دون أن ينطق بأية كلمة لأنّ كل طرفة عين من قبليهما كانت تحمل في طياتها ألف سؤال وسؤال.بادرها قائلاً:

ـ لا تقلقي من شيء فإنّي لم آت ولن آت لاحقاً على ذكرك في كل ما أدلي به.

ـ لم آت إلى هنا من أجل ذلك بل جئت لأطمئن عليك فقط .

ـ أعرف لكن أحببت أن أطمئنك لأني أعرف مدى القلق الذي تعانين منه.

ـ لقد حان الوقت لأسوي الأمر و سأفعل ذلك غداً.

ـ كذلك أؤكد لك بأني لم آت إلى هنا من أجل هذا أيضاً.

ـ أعرف ولكن عليّ تنفيذ ذلك لأتم وأنهي كل واجباتي تجاهك وتجاه كل من حولي.

ـ شكراً لأنك لم تزل تخصني بعطفك.

ـ هذا أقل من واجبي.

ـ شكراً مجدداً فأنت ستظل سنداً لي ما دمت حياً.

غادرت غرفة السيد بعد أن استفسرت منه بضع استفسارات كـان مدير المركز قـد حملها إياها قبل دخولها.

وفي اليوم التالي طلب مقابلة السيد مدير المركز والذي و ما إن التقاه حتى بـدأ يشرح كـل متعلقات وحيثيات الموضوع والأمر الذي قرّر فعله.

لم يرفض المدير بـل شجعه على القيام بما عزم عليه وأكثر مـن ذلك طلب أن يتم كـل شيء فـي حضوره وأن يسجل اسمه كشاهد على ذلك لأنه وحسب ما برره أنّ ما يقوم به السيد مـن أفعال تتسم كلها بالخير تستحق التشجيع والدعم.

وعلى الفور تم استدعاء موفد من المحكمة الشرعية كي ينظم ذاك العقد ولتصبح بموجب ذلك سلوى الزوجة الشرعية الثانية للسيد وبشهادة السيد مدير المصح والطبيب المعالج. فرحت سلوى كثيراً لهذا المستجد كون ذلك سيضعها في طريق صواب يجب أن لا تغادره أبداً لا الآن ولا لاحقاً لأنّ ما مرت به من قلق خلال الأيام الماضية لقنها درساً لن تنساه أبداً كونه كـان درساً قاسياً بكل المعايير.

أرسلت السيدة في طلب ابنها الذي كان يتابع دراسته في دولة أجنبية إلا أنه اعتذر عن المجيء كونه يجتاز امتحاناً في هذه الأيام على أن يأتي بعد أن ينهي ذلك.

الأمر الذي صدم السيدة كونها كانت تفتقد في هذه المرحلة لشخص من المقربين جداً كي يقف معها في مثل هذه الظرف العصيب كون أخويها اللذين اتخذا موقفاً سلبياً مما يجري على أنه أمر لا يخصهما من قريب أو بعيد.

لـذا بقيت تلك السيدة وحيدة إذ وبعد انتشار نبأ ما قام به السيد انفضّت من حولها معظم السيدات اللاتي كن يرتعن في كنفها طالما كانت مصلحتهن ومصلحة أزواجهن حاصلة.

إلا أنه لم يزل "في هـذه الدنيا خير" كما يقول المثل الشعبي حيث حافظت قلة مـن النسوة اللاتي ينحدرن مـن أصل طيب على صداقتهن مع السيدة بل وتعدى ذلك حيث وقفن بكل قوة إلى جانب السيدة وعائلتها مواسين و داعمين لها.

الأمر الذي كان له الأثر الإيجابي على نفسية كل من السيدة وبناتها إذ اعتبرت أنّ الانسان لا يمكن أن يعيش في مثل هذه الدنيا إلا مع أخيه الانسان وخصوصاً في لحظات الشدة.

قامت الابنة الكبرى بزيارة والدها برفقة خطيبها وكونها كانت تحظى بثقة والدها وتتمتع بمحبته وكذلك كان خطيبها كرس احترام السيد له لموقفه الداعم والعاقل مما قام به مؤخراً والذي إن نم عن شيء فإنه ينم عن سجايا طيبة ممتدة من أصل كريم.

استغل السيد تلك الزيارة حيث قام بإبلاغ ابنته وصهره بما أقدم عليه مؤخراً.

الأمر الذي شكّل صدمة لهما في البداية إلا أنهما تمالكا نفسيهما ومثلا رباطة الجأش أمامه مبدين تفهماً لما أقدم عليه محاولين تجنيب السيد أيـة ردة فعل سلبي قـد ينعكس على نفسيته وبالتالي على صحته بشكل عام لـذا قاما معاً بإطلاق عبارات التشجيع و الاستحسان لتلك الخطوة التي باركاها علناً أمامه معلنين أنهما سيقومان برعاية زوجته تلك وسيشركونها فـي كـل تفاصيل حياتهم لاحقاً.

و مـا إن غادرا المصح حتى لبس الوجوم محياهما إذ كل منهما كان يفكر بالأمر على طريقته حيث كان الصهر وكونه رجل حاول أن يجد المبرر المنطقي لفعلة عمه هذه إذ قلب الأمر من وجوهه المتعددة وفي النهاية كان ما

توصل إليه أنّ ما قام به عمه عمل عادي يقوم به أي شخص كان إذ إنه ليس بالشاذ.

أما الابنة فقد كانت تنحو بتفكيرها في غير اتجاه كونها كانت تفكر كامرأة إذ أول ما خطر ببالها هو والدتها و ردّة فعلها كيف ستكون إن علمت بذلك وما الذي ستقوله.

و لو أنها مكانها لأقامت الدنيا وأقعدتها إذ إنّ ما قام به والدها غير مبرر كونه لا ينقصه شيء حسب قولها و كما تقوله كـل النسوة اللاتي يتعرضن لنفس الموقف إذ إن والدتها كانت تحمل كل الصفات التي يحلم بها أي رجل و لم تزل فهي سيدة مجتمع من الطراز الرفيع وتنحدر من أسرة عريقة وغنية كما أنها ورغم تجاوزها الخمسين من العمر لم تزل تحتفظ بجمال وافر.

ـ لم فعل والدي ذلك؟لا أدري رغم كل ذلك فهو مخطئ بتصرفه هـذا لكن ما باليد حيلة والتفتت ناحية خطيبها الذي نطق بنفس العبارة"ما في اليد حيلة".

ضحكت طويلاً الأمر الذي أثار حفيظة الخطيب الذي سألها قائلاً:

ـ لم تضحكين هكذا؟

ـ لأنّ ما نطقت به أنت علناً أنا كنت أكرره في قرارة نفسي سراً.

عندها ابتسم بل و زاد على ذلك أنـه ضحك وأمسك بيدها وشدّ عليها حيث تابعا طريقهما سيراً على الأقدام حتى وصلا البيت وعندها تذكرا أنهما قد نسيا سيارتهما أمام باب المصح.

وعندها ضحكا من كل قلبيهما وعادا بسيارة أجرة واسترجعا السيارة حيث استغلا لحظة الرضا هذه إذ دارا دورة كبيرة سالكين الطريق الذي يلف المدينة بكاملها .

وفي هذا الوقت كان السيد مستلقياً على السرير وعلائم الراحة والرضا ترتسم على محياه كـونه قام بخطوة كبيرة هذا اليوم وأنّ ما لقيه من ردّة فعل إيجابية من ابنته وصهره أعطاه دفعاً إلى الأمام بل و زوّده بجرعة دعم زادت ثقته بنفسه على أنّ كل ما يقوم به ويفعله في هذه الأيام هو الصواب بعينه لذا عليه أن يستمر هكذا حتى النهاية.

.....

ـ تسرّب خبر عقد قران سلوى على السيد وانتشر بسرعة لا مثيل لها وخصوصاً في أوساط الإدارة التي تعمل فيها.

الأمر الذي كان له الوقع الحسن على تلك البطانة المنتفعة إذ أنّ معظم هؤلاء من معارف سلوى بل بعض منهم كانت تربطه بها صداقة تعدّت الشخصية إلى أن أصبحت عائلية حيث تعرفت على زوجات وبنات البعض إذ تبادلوا الزيارات والهدايا في مناسبات عدة.

لذا وعلى الفور تقرر تشكيل وفد من قبلهم كي يقدم التهاني لسلوى وكذلك الهدايا كعربون محبة وبنفس الوقت لجسّ نبضها للوقوف على ما تضمره وما تنوي فعله في الآتي من الأيام.التقى الوفد مع سلوى في منزلها حيث قدموا مباركتهم على خطوتها هذه وكذلك سلموها الهدايا و التي كانت ثمينة ونفيسة وبنفس الوقت وضعوها في قلب المشكلة.

فكرت قليلاً ثم قالت:

ـ سأبذل قصارى جهدي من أجل ذلك رغم يقيني من أنّ ذلك لن يجدي نفعاً كونكم تعرفون السيد وعناده.

ـ حاولي معه لأننا لا نخسر شيئاً من جرّاء ذلك في حال تمكنت من فعل شيء وإحراز تقدم في هذه القضية ستكون لك كل الحلاوة.

ـ لا أيها السادة فأنتم معارفي وقد تعاملت معكم من قبل لذا سأقوم بكل ما عليّ فعله لأجلكم وهذا أقل من واجبي تجاهكم.

شكروها وغادروا مرتاحين لردها هذا وكلهم أمل أن تستطيع فعل شيء قد يساعد في عبور و تجاوز هذه المحنة.

ودّعت سلوى تلك المجموعة وعـادت لتختلي بنفسها شاردة مفكرة بالطريقة المثلى التي تمكنها من ثني السيد عما قام به أو على الأقل حثّه على أن يمنح نفسه فرصة يعيد من خلالها ترتيب أولوياته.

تساءلت محدثة نفسها قائلة:

ـ لم قام بما قام به وهل ما قام به صحيحٌ وهل ما يشاع عن حالته الصحية من الواقع بشيء

لا أدري لكن ما قام به فاجأني تماماً.

أليس مـن المنطق أن يعلمني بنواياه سابقاً و لكن كيف ذلك فهو لا يبوح بالـذي سيفعله لأيّ شخص حتى يقدم على ذلك وعندها من له استفسار فليتفضل.

كان فعل ذلك مع أسرته فهل يقبل أن يغير عادته معي أنا.

المهم أن أفعل أي شيء كي أحافظ على علاقتي بهؤلاء فهم نبع عطايا و مورد هدايا.

استمرت هكـذا حتى غلبها النعاس.

وفـي الصباح غادرت قاصدة المصح وكان للوضع الجديد الذي صارت فيه تمكنت بسهولة من زيارة ومقابلة السيد.

جلست إلى جانبه على السرير و أمسكت بيده التي رفعتها وقامت بلثمها ومن ثم ضغطت بها على خدها لفترة وهي تنظر في عينيه اللتين كان التعب قد نال منهما وتسلل إليهما طابعاً حولهما بقعاً زرقاء كامدة.

بقيت هكذا لفترة حتى بادرها قائلاً:

ـ ما بك؟ أراك متعبة،ومن نظراتك أستطيع تخمين ما يجول بخاطرك وما أتيت من أجله.

ـ ما هو إن استطعت معرفة ذلك تكون ممن يتقنون الفراسة.

ـ لقد أتيت لبحث أمر ما معي أليس كذلك؟

ـ نعم لقد حزرت.

ـ خيراً إنشاء الله هات ما عندك.

ـ جئت لأطرح عليك أمراً أرجو أن توافقني عليه عسى أم يشكّل مخرجاً مشرّفاً للوضع الذي نحن فيه.

ـ عن أيّ مخرج تتحدثين؟

ـ أردت أن أقول ما يلي:

ـ أنه ولتبقى الأمور وتستمر على ما هي عليه إذ تستمر أنت متابعاً نقاهتك فـي هـذا المصح بينما نحن نقوم بإقناع الطبيب المعالج بأن يحرر تقريراً مفاده أنّ الإرهاق الشديد الذي عشته خلال الفترة السابقة أدى إلى ما وصلت إليه من حالة تشويش دفعك للقيام بما أقدمت عليه وأنك بحاجة لفترة نقاهة طويلة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ تمنح فترة إضافية تعيد خلالها لنفسك استقرارها وتوازنها وبعد ذلك كل قرار ستتخذه سأكون أول من يدعمه مهما كانت نتائجه.

ـ رفض فـي البداية لكنها ألحّت في طلبها ولما لها مـن دلال وتأثير عليه وافق على تلك الفكرة رغم رفضه الضمني لها وكونها لا تؤثر على ما كان قد قرر فعله.

ـ هل تعتقدين أنه من السهل القيام بذلك؟

ـ لا عليك سنرتب كل شيء وليس المطلوب منك سوى البقاء هنا لأطول فترة ممكنة.

ـ طيب افعلي ما تشائين.

عندها غادرت والغبطة تغمرها لنجاحها في مسعاها الذي كانت قد عقدت على تنفيذه الآمال العظام.

قصدت المكتب وكأنّ شيئاً لم يكن إذ سلّمت على الجميع وصافحت المقربين من زملائها وكانت تتلقى سيولاً من التهاني التي انهمرت عليها من زملائها الذين علموا بالخبر قبل أن تصل هي.

تقبّلت كل ذلك برحابة صدر معلنة للجميع أنّ السيد يعاني الآن من أزمة صحية طرأت له نتيجة للإرهاق لما يحمله من مهام ومسؤوليات وهموم.

لم يقتنع معظم من قاموا بزيارتها بالتبريرات التي قدمتها لهم عـن حالة السيد لـذا عاد بعضهم بعد أن غـادر مستغلاً فرصة عدم وجود أحـد عندها ليكرر أسئلته عن ذاك الموضوع وليؤكد شكوكه أو ينقضها.

وبالفعل لقد تعرضت سلوى لمثل هذا الأمر عدة مرات و من قبل عدة أشخاص عادوا إلى مكتبها كلٌّ على حده والكل يعيد ويكرر نفس الأسئلة وكانت كل الأجوبة تصب فـي نفس الموضوع و نفس المعنى لذا أصابها شيء

من الملل مـن جرّاء ذلك مما اضطرها لمغادرة المكتب على عجل في محاولة منها للابتعاد عن هذا الجو الخانق بالأسئلة والاستفسارات.

قصدت بيتها آملة أن تلقى شيئاً من الراحة هناك و لكن ما كان بانتظارها عكس ذلك إذ وجدت عـدة أشخاص ينتظرونها بعد أن أخذوا إذناً من المؤجر لأن يسمح لهم بانتظارها وكانت الحجج التي قدموها له كلها كـانت من الصعب بل من العسير عليه رفضها مثل أنهم أبناء قريتها و مـن أقاربها و هـم يقصدونها من مكان بعيد لذا لم يتردد من أن يفتح لهم باب منزلها بحيث و مـا إن وصلت بيتها حتى وجدت أشخاصاً سبق لها وأن قابلتهم وبعض منهم كانت قـد قدمت لهم التفسيرات التي حضروا مـن أجلها ولكن ولسوء حظها أنهم لم يصلوا للاقتناع بصحة ما ساقته من تبريرات وتفسيرات لذا توجب عليها أن تقدم لهم التعليل الموضوعي لكل ما كانوا قد قصدوها لأجله.

وبالفعل قامت ببذل جهد كبير في سبيل إقناع غالبية من حضر لزيارتها أما من بقي فقد اضطرت وتحت ضغطهم وإصرارهم لأن تعترف وبكل صدق ودقة بكل شيء لذا وجدت نفسها تقف بين شريحتين مـن البشر.

الأولى متفهمة و واعية قدرت الموقف حق قدره وغادرت معلنة وقوفها إلى جانبها إن اضطرت لأية مساعدة.

والثانية مشككة كل أسئلتها تنم عن ريبة وعدم ثقة إذ أنها لم تقتنع بما سمعت من توضيح وتفسير.

لـذا قرروا البقاء هكذا ليراقبوا كل شيء عن كثب كي يحصلوا على النتائج فور صدورها ومن أية جهة كـانت لذا بقوا هكذا يشكلون ضغطاً إضافياً يرهق كاهل سلوى وكل من يصادفوه من المقربين جداً من السيد.

زار السيد أبو أحمد "السيد" بمفرده هذه المرة بعد عدة أيام من الزيارة الأولى التي قام بها برفقة ابنته وصهره.

وكانت تقاسيم وجهه تنبئ بأنه يعاني من أمر أقلقه.

بادره السيد قائلاً:

ـ خيراً إن شاء الله أبو أحمد ما الذي يقلقك ويشغل بالك قل فضفض.

ـ جئتك مستفسراً عن أمر شغلني كثيراً وأودّ منك أن تقدم لي تفسيراً منطقياً يريحني و يعيد لـي راحة بالي.

ـ أنا تحت أمرك قل لي ما الذي يشغل بالك.ألم أنفذ ما كنت قد طلبته مني.

ـ نعم لكن ما أتيت لأجله شيء آخر.

ـ تكلم يا رجل أنزل عن كاهلك.

ـ صديقي العزيز لم أقدمت على ما قمت به؟

ـ لقد فسّرت دوافعي أمامك وأمام كل من قابلتهم غيرك.

ـ أجل ولكن ما أريده هو معرفة السبب الحقيقي الذي كان وراء موقفك هذا.

وإني لأرجح أن يكون السبب الحقيقي كبيراً جداً و إلا لما كنت ألقيت تلك الصخرة وبهذه الطريقة.

ـ دعني أبو أحمد من فضلك لقد أثقلت علي بأسئلتك وشكوكك هذه أنت بذلك ترهق أعصابي.

ـ قل ما الذي تريده مني بحق السماء.

ـ أريد معرفة الحقيقة وليس سوى الحقيقة.

ـ الحقيقة لقد قلتها وردّدتها مرات عدة.

ـ لا لم تقل كل الحقيقة ولهذا السبب جئتك ساعياً.

ـ أرجوك أبو أحمد وحفاظاً على الذي يربطنا دعني وشأني.

ـ كيف أدعك وشأنك.ألست صديقي الوحيد وكل ما لي في هذه الحياة.

ـ نعم صحيح.

ـ ألست أنت صديق عمري ورفيق دربي الأوحد.

ـ نعم، نعم، نعم. قالها وهو ينتفض.

ـ إذاً كيف تريد مني أن أدعك وشأنك.أو تظن أنّ كل ما يرهقك ويزعجك لا يؤثر فيّ على الإطلاق. إن ظننت ذلك فأنت مخطئ.

ـ هات من النهاية.قل ما الذي تريده مني بالكامل.

ـ أريد معرفة الدافع الحقيقي والأساسي لفعلتك هذه.

ـ لا دوافع عندي غير ما كنت قد ذكرته لك ولغيرك.

ـ بلى يوجد.

ـ يا رجل دعني وشأني.أرجوك لا تزد من مواجعي وآلامي.

ـ لن أدعك وشأنك إطلاقاً إلا بعد أن أعرف السبب الحقيقي الذي دفعك للقيام بما قمت به.

ـ اتركني لحالي أرجوك.

ـ لن أتركك أبداً وأمسك بكتفيه وقام بهزه بينما كان السيد مطرقاً صامتاً.

أنزل أبو أحمد يده ورفع رأس صديقه دافعاً إياه للنظر في وجهه وهو يقول:

ـ انظر في عينيّ جيداً.

نفض رأسه قائلاً:

ـ دعني وشأني يا رجل ما الذي تريده مني بل ما الذي دفعك بالمجيء إلى هنا أصلاً و

ـ الآن بالذات.

ـ جئت وكلّي تصميم لأعرف الحقيقة لأنني تعب أكثر منك.

ـ أكثر مني.قالها وهو يهزّ رأسه مستهجناً.

ـ نعم أكثر منك.ألا تعرف أنّ من أصعب الأمور على المرء أن يجد صديق عمره يمر بأزمة أو ضائقة ما ويقف مكتوف اليدين لقلة حيلته،أنا لا أريد أن أكون ذاك الشخص.

ـ يا صديقي أشكرك على عواطفك هذه ولكن صدقني أنا لم أخفِ عنك شيئاً ولا عن غيرك أيضاً.

ـ لا مفرّ أمامك بل لا فكاك لك من بين يدي قلت أريد معرفة كل شيء يعني أريد ذلك و لن أذهب دون أن أنال مأربي وما جئت لأجله أفهمت.

ـ لا يوجد عندي ما أقوله لك.

ـ لا تحاول لن أتزحزح من هنا قبل أن أعرف الحقيقة.

ـ يا رجل لم أقابل في حياتي رجلاً أعند منك.

ـ نعم أنا عنيد جداً وأنت تعرف أنني إن وضعت أمراً نصب عينيّ لن أتركه حتى أتمه.

ـ يا لحظي التعس الذي أوقعني بين يدي رجل مثلك قل لي من الذي أذن لك بالدخول إلى هنا.

ـ أنت تعرفني جيداً لذا لا تسأل.

ـ قل لي من الذي سمح لك بالدخول لمقابلتي؟

ـ أنت تعرف أنّ معارفي كثر هنا وفـي كل مكان لذا لا تغيّر الموضوع فأنا أستطيع أن أدخل و أقابلك حتى وإن رفض الطبيب المعالج.

ـ أعرف كل ذلك ولكن كل ما أرجوه منك أن تدعني وشأني على الأقل الآن.

ـ لن أدعك ترتاح حتى أرتاح.

ـ أنت أناني جداً.

ـ نعم في مثل هذه المواقف أنا كذلك.

ـ للمرة الثانية والثالثة و المئة أقول لك أني لم أخف عنك شيئاً صدقني.

ـ إلا في هذه المرة أنا واثق بأنك لم تقل كل شيء.

ـ أتكذبني يا رجل هذا فظيع.

ـ حاشاك من الكذب لكنك لم تذكر لي الحقيقة كاملة وكن على ثقة بأني لن أخرج من هنا دون أن أعرف الحقيقة وبنفس الوقت أعدك بأن لا أبوح بسرك لأي شخص كان ومهما كانت درجة قرابته.

ـ لا توجد أية أسرار فكل شيء أصبح واضحاً ومكشوفاً الآن لم لا تقتنع يا رجل لقد أرهقتني لذا أرجوك دعني الآن على الأقل.

ـ إن ظننت بأنني سأغادر خالي الوفاض فأنت مخطئ. يا رجل أريد أن أنام.

ـ نم ومن يمنعك.

ـ أتسألني عن ذلك وكأنك لا تعرفني ولم تكن قد جربتني سابقاً.أنا أستطيع أن أنام و صديق عمري يمر بأزمة ما مهما كانت طبيعتها فما بالك وأنك تمر بل وضعت نفسك في هذا المأزق بمحض إرادتك أني وكما أرى أنا وغيري ممن يراقبون من بعيد.

لذا إن لم تقم بتوضيح كل شيء لـي فلن أدعك تهدأ أبداً.

هل كنت ستتركني لحالي وتنام قرير العين وأنا أمرّ بأزمة مهما كانت صغيرة.قل هل كنت

ستفعل ذلك.

ـ حرّك السيد رأسه بعلامة الرفض.

ـ ها ها بما أنك لن تقبل بذلك فلم تمنعني من القيام بواجبي تجاهك وتجاه عائلتك.

ـ كيف ذلك وهل منعتك أنت وغيرك من أن تقوم بأي شيء تريد فعله.

ألم أقدم وأنفذ لك ولغيرك كل ما كنتم قد طلبتموه مني بالرغم من أنك أنت بالذات تعرف كم تعرضت لضغوط من قبل لأقوم بذلك.

ـ أعرف ذلك وأقدر كل ما كنت قد قمت به من تضحيات وأعمال.

لكن لم تقل لي بل أنا لم أقتنع بأنّ ما قمت به كان نتيجة لما ذكرت لذا أريد أن أضع يدي على كل شيء كي يكون تصرفي سليماً لاحقاً.

قالها وهو يركز النظر في وجه السيد الذي طأطأ رأسه بعد أن جلس على حافة السرير.

حيث وضع يديه على وجهه وأجهش بالبكاء.

تركه أبو أحمد فترة قصيرة من الزمن ليتمكن من تمالك نفسه وبنفس الوقت كان في قرارة نفسه يعرف جيداً أنّ البكاء ولمثل هذا الرجل هو كصمام أمان لضغط نفسه إذ ما إن تتدحرج الدمعات حتى يتنفس الرجل الصعداء، كمن أزيح حجر كبير عن كاهله.

لذا كان أبو أحمد يحس براحة أعطته أملاً معيّناً.

عندها ركع أبو أحمد أمامه وقام برفع رأسه و مسح الدموع من على وجنتيه قائلاً:

ـ تشجع يا صديقي لا شيء في هذه الدنيا يستحق كل هذا.

ـ من الذي أرسلك إليّ ودفعك كي تنبش في كل مواجعي الخفية.ألم يكن من الأجدر أن تدعني وشأني.

ـ هذا حلم بعيد المنال عنك.لو تركتك وشأنك لما كنت أستحق لقب صديق ومكانته، لـذا اهدأ يا رجل و استرخِ وتشجع وقل لي كل شيء لأعرف كيف أتصرف وبسرعة قبل فوات الأوان.

ـ لم تصرّ على أني أخفي شيئاً.

ـ لأني أعرفك جيداً وأعرف كيف تتصرف حيال أي موقف توضع فيه مهما كـان صعباً وقاسياً أمّا ما أنت فيه الآن فبالتأكيد أنّ وراءه أمراً جللاً.

ـ يا رجل يا رجل دعني وشأني.

ـ لا تحلم فأنا عنيد، بل أنا العند ذاته.

ـ اجلس يا صديقي جانبي كي أحدثك بالذي يكاد يفتك بيّ لأني أعرف تماماً أنك لن تدعني وشأني مهما كابرت.

ـ استرخِ يا صديقي وهدئ نفسك من فضلك أولاً ومن ثم قل كل ما عندك.

ـ اسمع يا صديقي ما أعانيه مـن ضغوط أتعرض لها منذ مدة طويلة حاولت حلها والخلاص منها لكن دون فائدة وبنفس الوقت كنت ومنذ مدة عندما أنظر في المرآة صباحاً وأشاهد الشيب كيف غزا رأسي وكذلك تلك الغضون التي بدأت تصطف فوق جبيني ومن تحت ذقني عندها حاكيت نفسي إذ قلت:

ـ العمر أصبح فـي أواخره أي أنّ لحظة اللقاء العظيمة أصبحت قريبة لـذا بدأت أسترجع كـل شريط حياتي الحافل بما تم ذكره في تلك الجلسات التي تمت أمام تلك الهيئة،وما خفي كان أعظم.

إذ أنه وكلما حاولت أن أضع رأسي على الوسادة طالباً النوم الـذي عزّ حضوره وأصبح يبتعد شيئاً فشيئاً إلـى أن غاب نهائياً.

الأمر الـذي هيّج كـل خلايا جسدي وجعلها تضغط على أعصابي لدرجة كدت فيها أن أفقد توازني بل كدت أن أفقد عقلي.

لذا وفي لحظات التجلي والتي لا أعرف كيف أتتني ومـن أين اقتحمت كل ما فيّ.

حاكمت الأمر بيني وبين نفسي مرات عدة وتساءلت هل تلك اللحظات تأتي وتعترض طريق الشخص الذي غطس حتى أرنبة أذنه في الموبقات والآثام أم أنه ولحكمة معينة تحضر لأمثالي كـي يكونوا قدوة لمن شابهـهم وماثلهم وسار في طريقهم لذا مشيت في هذا الدرب والذي كنت حتى هـذه اللحظة في غاية اليقين بأنّ الدرب الذي سلكته مؤخراً هو الصواب بعينه.

ـ كل ما تفضلت به حتى الآن جيد وقد يكون من أحد الأسباب لما قمت به وليس هو وحده فقط السبب الرئيسي والوحيد.

ـ يا رجل وبعد كل ما قلت لم تصدقني.

ـ أنت صادق ولكن لم تتشكل لدي القناعة حتى الآن إذ أنني أعرفك جيداً فأنت لا تهد المعبد هكذا إلا إذا كان الموقف يستحق ذلك وبالأحرى لم

يعد هناك من شيء يستحق معه ومن أجله أن تستمر في تحمل الضغوط والمعاناة.

ـ يا رجل لم ألتقِ في حياتي بشخص ملحّ مثلك.

ـ "الله ينور عليك"قالها بلهجة عامية.طالما توصلت إلى هذه النتيجة فإنه مـن الموجب عليك أن لا تعمل على إخفاء أي شيء عني لذا هات ما عندك وبالتفصيل الممل.

ـ هزّ السيد رأسه كمن يرضخ مجبراً إذ لا حول له ولا قوة وعندها أمسك بيد أبو أحمد بكلتا يديه و هو يوجه كلامه له قائلاً:

ـ هات الكرسي من هناك واجلس قبالتي هنا لأنّ الجلسة ستدوم طويلاً لأنّ ما سأحكيه لك هام وحساس وبنفس الوقت هو كل ما في جعبتي لأنني لن أكرر هذه اللحظة ثانية ومهما كانت الأسباب.

ـ سحب أبو أحمد الكرسي وجلس قبالة السيد وعلائم الضيق تبدو جلية على وجهه كونه أحسّ بأنه قـد قسا كثيراً على صديقه.

وما أصعب تلك اللحظة التي يحس بها الانسان أنّـه مضطر للقسوة و الضغط على شخص أحبه والأخص عندما يكون ذلك في صالح ذاك الشخص.

ـ هات تكلم يا صديقي.

ـ اسمع يا سيد أبو أحمد ما سأورده لك يدخل في نطاق السرية والسرية المطلقة أحذرك.

ـ قل ما عندك واعتبر أنّ سرك سيكون في بئر سحيق القرار.

ـ جيد هـذا عهدي بك.

منذ فترة طويلة نسبياً بعض الشيء أي تعود لحوالي السنتين اللتين مضتا بـدأت ألمس وأحس بأنّ مشاعر زوجتي أخذت تتغير تجاهي.

استغربت الأمر في البداية لكنني تجاهلته معللاً الأمر بما يلي إذ أن الحياة الزوجية بشكل عام تمر بين الحين والآخر بمرحلة من الفتور بحيث تهمد العواطف بحكم التعوّد.

ولتلافي هذا الأمر كنت فيما مضى من الزمن أنظم رحلات داخلية و خارجية فيتم من خلالها كسر هذا الملل ونفس الوقت تشحن العواطف.

إلا أنه وفي هذه المرحلة بالذات لم تكن تلك المحاولات تجدي نفعاً بل زادت علاقتنا فتوراً.

وكلما أمعنت فـي محاولاتي كنت أقابل بالبرود و الإهمال واستمر الوضع هكذا حتى أصبحت تتولد عندي قناعة أنّ هذه المرأة بدأت تكرهني.

ـ ألم تصارحها بالأمر؟

ـ حاولت ولمرات عدة ولكن دون جدوى.

ـ كيف كانت تتصرف حيال مبادراتك؟

ـ كانت تبذل جهدها أن لا نلتقي سوية وعلى انفراد إذ كانت و بأي طريقة لا تدع جلستنا تخلو مـن شخص آخر أياً كان حتى وإن اضطرت لاستدعاء الخدم.

ـ ألهذا الحد كان التوتر والجفاء بينكما.

ـ بل وأكثر من ذلك.

ـ كيف تصرفت حيال ذلك؟

ـ أشغلني الأمر كثيراً إذ زاد على ما أحمله من هموم وأعباء همّاً وعبئاً إضافيين أرهقت كاهلي لدرجـة صرت معهما أخشى أن أخطئ في عملي.

لذا ركزت على هذا الموضوع وذلك فضولاً مني بالدرجـة الأولى ولمعرفة السبب الحقيقي القابع خلف تصرف زوجتي الغريب هذا.

وبنفس الوقت كنت أبذل جهداً إضافياً كي لا أدع كلا البنتين تحسّان بشيء خوفاً من أن تتأثر نفسيتهما وبالتالي حياتهما.

ـ ماذا فعلت إذاً؟

ـ لقد فتشت في كل دقائق حياتنا الخاصة بل قمت بمراجعة نفسي خشية أن أكون أخطأت أو زللت فـي لحظة ما دون أن أدري لكن دون جدوى إذ إني لم أجد شيئاً يذكر.

ـ ما السبب الحقيقي الذي كان يقف وراء موقفها هذا؟

ـ حتى تلك اللحظة لم أكـن أعلم لأنّ كل محاولاتي باءت بالفشل لذا قررت أن أتنصت على مكالماتها الهاتفية الواردة والصادرة عن منزلي.

ـ وكّل الله يا رجل وكيف خطر لك هذا لم تخف من انتشار وإشاعة هذا الأمر.

ـ نعم حسبت حساب ذلك إذ قمت بتكليف أحـد مساعديّ بذلك بحجـة حاضرة وجاهزة تماماً ألا و هـي الضرورات الأمنية.

لذا قام ذاك الشخص بتركيب جهاز لاقط وأوصله إلى جهاز تسجيل ركّـز في سقيفة البيت.

ـ وهل توصلت لشيء بعد كل ذلك.

ـ نعم بل قل أشياء وهنا كانت الطامة الكبرى.

ـ ما الذي توصلت إليه؟

ـ أمر في غاية الخطورة والحساسية.

ـ ألا وهو؟

ـ إنّ زوجتي كـانت تتلقى مكالمات وتقوم باتصالات هـي أيضاً مع شخص واحـد وبأوقات و فترات متفاوتة.

ـ من هو؟

ـ سأورد اسمه لاحقاً بل قل ما كان فحوى تلك المكالمات.

ـ صحيح ما الذي تضمنته تلك المكالمات؟

ـ كانت تناقش خلال تلك المكالمات تفاصيل صفقات تجارية وغيرها من الخدمات التي كانت تقدمها لـه زوجتي مستغلة اسمي ومنصبي وبذلك كانت تحصل على مقابل مادي كان يوضع في حساب كنت قد فتحته لها سابقاً.

ـ ما طبيعة تلك الصفقات؟

ـ كانت تفاصيلها غامضة إذ إنّ كل مـا كان يتم التفاوض عليه كان مرمّزاً إذ لا شيء واضح بل كـان عبارة عن مصطلحات عامة.

ارتبت كثيراً منها ومن هذا الشخص المجهول الذي اقتحم حياتي في هذه المرحلة وبهذه الطريقة الفجة.

ـ في النهاية هل فهمت شيئاً مما كان يجري؟

ـ في البداية لا ولكن وبعد أن استمعت لأكثر من شريط قررت متابعة و معرفة ذاك الشخص بطرقي و صلاتي الخاصة.

ـ وهل عرفته أخيراً؟

ـ نعم.

ـ ومن كان؟

ـ فلان.

ـ من! فلان الشخص الذي يعرفه كلانا.

ـ نعم هو بذاته الشخص الذي كنا قد اجتمعنا به في مزرعته الخاصة العام الفائت.

ـ كيف تصرفت معه؟

ـ لم أكتف بمراقبة الهاتف بل وضعتها تحت المراقبة الصارمة ولفترة طويلة حتى تمكنت من وضع يدي على كل ما كان قد أخفي عني ونغّص حياتي طيلة هذه الفترة.

ـ ما هو هذا الشيء.

ـ كانت وكما أسلفت تعقد صفقات وتمرر خدمات مقابل مبالغ مادية معينة.

ـ هذا الأمر لا يثير القلق إذ إنّ كل نساء وعائلات المسؤولين يقومون بذلك.

ـ نعم معك حق ولـو أنّ الأمر توقف عند هذا الحد لكنت تجاهلته وسكتّ بل وكنت قـد غضّيت النظر نهائياً كوني سأعتبرها تؤمن مستقبلها.

ـ ما الجديد الذي منعك من ذلك ؟ما الذي كانت تفعله؟

ـ كانت تستجر مبالغ كبيرة من أرصدتي في الخارج و تضعها في حسابها الشخصي.

ـ كيف تمكنت مـن ذلك فأنا أعرف أنه ولسحب أي مبلغ من أي بنك يتوجب حضور الشخص صاحب العلامة أو بموجب وكالة خاصة أو .....وصمت.

نعم لقد قمت بوضع حساب مشترك بيني وبينها كي يستطيع أيّاً منّا سحب مـا يحتاجه أو تحويله دون حضور الشخص الآخر.

ـ حتى الآن كل الأمر يبدو عادياً إذ إنما لم أجد ما يقلق فيه.

ـ نعم هذا صحيح لذا تغاضيت عنه في الوهلة الأولى حتى تفاجأت ومن خلال التسجيلات تلك علمت أنها قصدت استجرار كل أرصدتي ووضعها في حسابها الخاص وأنها كانت ترتب معه أمراً فـي غايـة الخطورة.

ـ ما الذي كانت ترتبه.

ـ سأذكر ذلك لاحقاً لك لكن دعني أفسّر لك لماذا فتحت ذاك الحساب المشترك.

ـ آه صحيح لقد أنسيتني ذلك لأني كنت سأسألك عنه.

ـ قمت بفتح ذاك الحساب تحسّباً للزمن إذ إنّ الانسان لا يضمن الظروف.

ـ وهل كنت تظن نفسك محقاً في ذلك؟

ـ كنت أحسب أني محق في حينها.

ـ ليس الأمر مهماً إذ لا داعي لأن نناقشه الآن.

ـ معك حق وأعرف أنّ الخطأ لا يجرّ سوى الخطأ.

ـ عن أي خطأ تتكلم؟

ـ عن هذا الأمر وغيره من الأعمال التي قمت بها منذ أمـد بعيد مسيئاً بالدرجة الأولى لنفسي و بالتالي للمجتمع بأكمله.

ـ صحيح ليت كل إنسان في هذا الكون يفعل ضميره و لو فعل لكان الكون بخير لكن ليس باليد حيلة إذ إنّ الحياة هكذا تحوي الصالح والطالح والمسيء يعيش إلى جانب المحسن بل ويتسلط عليه في معظم الحالات.

ـ كل ما تفضلت به صحيح لذا تراني أقدمت على ما قمت به بكل جرأة وإقدام.

ـ أحيي تصرفك هذا ولكن لم تقل لي السبب الحقيقي الذي دفع بزوجتك للقيام بذلك.

ـ نعم صحيح سأقول لك.

ـ هات لأني أعرفك جيداً فأنت لم تقم بما قمت به مـن أجل حفنة من مال تستطيع تعويضه خلال فترة وجيزة.

ـ أنا أعرف أنك ملحاح وأنه من الصعب إخفاء أي شيء عنك لأنك ستنبش به وتظل هكذا حتى تصل إلى مرادك.

ـ الله ينور عليك هات من الآخر من فضلك فذلك أفضل لي ولك.

ـ حاضر يا سيدي وكانت حالته النفسية قـد بدأت بالانفراج قليلاً كمن بدأ يزيل طبقات ثلج تراكمت إثر عاصفة هوجاء من على كاهله حيث يتنفس الصعداء أخيراً.

وفـي هذه اللحظة دخلت المرضة كـي تقدم للسيد جرعـة الدواء المقررة مـن قبل الطبيب المشرف.

و بعد أن غادرت حضر مستخدم يحمل صينية تحوي وجبة طعام للسيد والتي كانت تعتبر فاخرة مقارنة بما يقدم فـي مثل هكـذا مصحّات والمشافي العامة للنزلاء.

وضع المستخدم الصينية على الطاولة و غادر بعد أن أبدى استعداداً لتلبية أي شيء قد يطلب منه.

تابع السيد قائلاً:

ـ عند استماعي لآخر تسجيل.

ولاح برأسه أسىً ثم تابع:وكان يحوي اعترافاً من قبل زوجتي برغبتها في الانفصال عني وفي أقرب فرصة ممكنة والارتباط به لاحقاً.

ـ ما الذي تقوله يا رجل هل أنت بكامل قواك العقلية أتريدني أن أصدق ذلك عن السيدة.هذا غير معقول إطلاقاً.قالها أبو احمد وهو يضرب كفاً بكف.

ـ صدقني ما أقوله صحيح.

ـ قل غير هذا الكلام يا رجل.

ـ نعم صدّق و التسجيل موجود إذ أنني لم أزل أحتفظ به حتى الآن.

ـ أين ذاك التسجيل؟

ـ في منزل سلوى زوجتي الجديدة وضمن الحقيبة الخاصة بي.

ـ وهل تعرف سلوى فحواه؟

ـ كلا وهل أستطيع أن أفصح أمامها بهكذا أمر.

ـ لم لا أليست زوجتك.

ـ نعم ولكن الزمن علمني أن أكون أكثر حرصاً وخاصة في مثل هذه المواضيع.

ـ معك حق وخيراً فعلت إذ إنك لم تقم بإبلاغ زوجتك الثانية بأسرار بيتك القديم.

ـ هكذا ارتأيت و أظنه كان الأفضل.

ـ نعم وهل أستطيع الإطلاع على محتويات تلك الأشرطة.

ـ لماذا وهل تشك بكلامي؟

ـ لا معاذ الله ولكن ليتأكد يقيني.

ـ إن كان الأمر كذلك سأطلب من سلوى أن تسلمك تلك الحقيبة وسأزودك بالرقم السري للقفل.

ـ وهل تقوم بذلك دون أن يراودك الشك بي.

ـ لو كان عندي أدنى شك حيالك لما كنت قد صرحت لك بكل ما سمعت ولـو أنك قمت بفعل خيانة أيّاً كان الأمر سيان عندي لأني سأهدم المعبد عليّ وعلى من حولي.

ـ لن أدع الأمر يصل إلى هذا الحد إذ إنني سأطلع على محتويات تلك الأشرطة وسأفكّر بعدها بالطريقة المثلى لحل تلك المعضلة وغيرها مما سيظهر لاحقاً بالتشاور و التفاهم معك أولاً و مع أفراد أسرتك بمن فيهم السيدة الكبيرة حرمكم المصون.

ـ هذا أملي و كلّي ثقة بأنك ستتصرف بحكمة.

ـ اطمئن يا صديقي سأكون عند حسن ظنك وسأساعدك على تحقيق الحق لينال كل ذي حق حقه و المخطئ ينال عقابه.

ـ حسناً إذاً هات ورقة وقلم لألقنك الرقم السري للمحفظة.

ـ تفضل.قالها وهو يناوله دفتر جيب صغير وقلم.

ـ شكراً يا عزيزي على كل ما فعلت حتى الآن.

ـ لا تشكرني الآن لأني لم أفعل أي شيء حتى هذه اللحظة بل ادع لي بأن أوفق في كل مساعيّ لاحقاً.

ـ دائماً أدعو لك بالخير لأنك تستأهل ذلك يا صديقي العزيز ولكن لابدّ لي من أن أؤكد على أمر هام واعذرني على ذلك سلفاً.

ـ قل كل ما تريده دون أي إحراج.

ـ صديقي العزيز أنت تعرف حراجة الموقف الذي تمر به عائلتي الآن لذا أرجو منك أن تتصرف بحكمة وحنكة حيال ما سيظهر أمامك وأن يكون هذا الموضوع محصوراً بيننا نحن الثلاثة وأبعد ما يكون عن مسامع بناتي وصهري.

أرجو أن تكون فكرتي وطلبي هذا قد لاقى عندك الوقع الحسن.

ـ اطمئن فإنهم أهم ما لديّ في هذا العالم.

عندها قام أبو أحمد ووضع الدفتر فـي جيبه وكذلك القلم ومن ثم تقدم نحو السيد الذي وقف بدوره و عانقه شادّاً بكلتا يديه وهو يربت بكفيه على ظهره دون أن ينطق إطلاقاً بل تركه وغادر وهـو يرفع يده مودعاً.

وبعد أن غادره أبو أحمد جلس على السرير وأسند رأسه على رأس السرير وحدّث نفسه و كان بقرارة نفسه شبه مرتاح كونه أزاح ذاك الحمل الهائل الذي كتم أنفاسه طيلة الفترة الماضية شاكراً الله على منحه صديقاً صدوقاً كالسيد أبو أحمد لأنّ أمثاله في هذا العالم أصبحوا نادرين جداً و عندها التفت ليلحظ الصينية المركونة عليها وبحركة لا شعورية قام واتجه نحو الطاولة وجلس ليتناول طعامه بتلذذ، كيف لا وقد قطع شوطاً لا بأس به في طريق المصالحة مع ذاته.

وبعد أن انتهى من تناول طعامه قرع الجرس ليحضر المستخدم حيث حمل الصينية و طلب منه أن يحضر لـه بعضاً مـن الجرائـد الصادرة والتي تكون بعضاً منها في مكتب المدير.

ـ حاضر يا سيدي سأفعل ذلك وإن لم أجد شيئاً في مكتب السيد المدير سأذهب وأشتري لك بعضاً منها.

ـ شكراً لا أريد أن أتعبك.

ـ لا تقل هذا يا سيدي أريد خدمة أكبر.

ـ شكراً.

ـ عفواً قالها وهو يغادر.

وبالفعل عاد ذاك المستخدم بعد وقت قليل وهو يحمل أعداداً من الصحف الصادرة لهذا اليوم.

قلّبها كلها فلم يجد شيئاً مما كان يبحث عنه ألا وهو ما يتعلق بوضعه بالذات.تساءل لم هذا التكتم وهو ما قمت به لا أبـداً لكن والله أعلم أنها تعليمات مـن جهات عليا.

وعند ذلك أعـاد فتح تلك الجرائد فضولاً وتمضية للوقت واستمر هكذا حتى داهمته الغفوة حيث استسلم في قيلولة دامت طويلاً.

وصل أبو أحمد إلى منزل سلوى التي استقبلته استقبالاً حاراً كيف لا وهي تعرفه منذ زمن بعيد مـن قبل أن تصبح زوجة السيد إذ إنه كان يتردد كثيراً على مكتبها في الفترات الماضية عندما كان يزور السيد.

سألته بإلحاح عن كل شيء وبالأخص عن حالة السيد الصحية والنفسية هل هـو مرتاح أم أنـه يشعر بالضجر والملل.

هل هو بحاجة لأي شيء هل كلّفك أن تبلغني أي شيء.

ـ مهلاً يا ابنتي مالك لقد أربكتني بأسئلتك المتتالية والسريعة هذه السيد بخير ويهديك السلام و كان قـد أرسل لك معي هذه.ومـدّ يده لينزل الورقة من الدفتر وعند ذلك أطلع على محتواها إذ كـانت تحمل بضع عبارات ودودة لها وفي أسفل الورقة كان ذاك الرقم.

ومـا إن قرأتها حتى قامت بسرعة قاصدة غرفة نومها لتحضر تلك الحقيبة التي ناولتها للسيد أبو أحمد مع الورقة.

ـ سأوصل هذه الحقيبة للسيد كونها تحوي مستندات هامة ولازمة للسيد في هذه المرحلة.

ومن ثم غادر بعد أن وعدها بأن يأتي ويطمئنها على كل المستجدات وبالأخص عن حال السيد.

وصل منزله وكـان فـي غاية التلهف لمعرفة محتويات تلك الأشرطة وبالفعل قصد غرفته الخاصة .

وضع الحقيبة على كنبة جانبية ومن ثم عاد ليحضر جهاز تسجيل من غرفة مجاورة.

و مـا إن أصبح داخل غرفته وبعد أن أقفل الباب بالمفتاح قام بفتح الحقيبة وأخرج منها تلك الأشرطة الشهيرة ورتبها علـى الطاولة حسب أرقامها التي كان السيد قد دونها عليها.

و عندها كانت الصدمة الكبرى التي تلقاها أبـو أحمد إذ كان كل ما قاله السيد صحيحاً ولأنه حتى فتحه الحقيبة كـان لديه أملاً بأنّ هناك سوء فهم أو قراءة للموضوع.

قـام بإعادة الأشرطة مرة أخرى و عندها قرر تسجيل بعضاً مـن الملاحظات فـي قصاصات كان يضعها في علبة كل شريط استنسخت منه.ومن جرّاء كل ذلك إذ كان لما سمعه و تأكد له الوقع السيئ على نفسه الأمر الذي دفعه للاختلاء بنفسه لفترة طالت كل فترة الظهيرة هذه مفكراً ومحللاً ومحاولاً إيجاد طريقة مثلى تجنب السيد وعائلته السقوط في هاوية عاقبتها سيئة.

حمل الأشرطة وجهّز نفسه من كل النواحي إذ شحذ همته كي يواجه السيدة بقلب قوي وبجرأة كونها هي السبب وراء كل ما قام به وأقدم عليه السيد من أفعال.

وصل منزل السيد فجأة و دون اتصال مسبق إذ تفاجأت السيدة لحضوره المفاجئ هذا وخصوصاً أنها لمست من ردوده وطريقة كلامه و كذلك مـن التقاسيم المرسومة على محياه أنّ هناك أمر جلل دفعه للقدوم هكذا لذا تراها تلعثمت وهي ترحب به وكل حواسها مشدودة باتجاهه.

بعد أن جلس فـي صالة الاستقبال لفترة إلى أن غادرت الخادمة حيث بقي وإياها على انفراد توجّه إليها قائلاً:

ـ سيدتي أريد التحدث إليك وعلى انفراد إذا سمح أمرك.قالها باقتضاب.

ـ خيراً إن شاء الله أبو أحمد نحن الآن لوحدنا إذ لا يوجد أحد فـي المنزل سوى الخادمة كـون البنات خرجن في بعض المشاغل برفقة الصهر.

ـ لا،لا،أريد أن تكون جلستنا بعيدة عن أعين ومسامع أي شخص أي على انفراد بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

ـ كما تريد تفضل إلى هناك حيث غرفة مكتب السيد.

ـ حسناً إنها المكان المناسب.

ـ هيا بنا.

وسارا حتى دخلا المكتب بحيث قام بإغلاق الباب وطلب منها الجلوس والاستماع لما جاء يقوله بكل هدوء وروية.

ـ سيدتي الكريمة أين جهاز التسجيل الخاص بالسيد؟

ـ هناك في الزاوية الثانية من المكتب جانب الكلوب.

ـ ها حسناً.

قام وأحضره وعيون السيدة المرتابة من حضوره هكذا أصلاً تلاحقه راصدة كل حركة مـن حركاته بدقة.

أخرج من كيس كان يحمله معه عدة أشرطة تسجيل ووضعها على الطاولة وقام بترتيبها حسب الأرقام المسجلة عليها ومن ثم توجه إلى السيدة بالقول:

ـ اسمعي سيدتي أريد منك أن تستمعي لهذه التسجيلات ومن بعدها نتحدث.

ـ ما الذي تحويه هذه الأشرطة.

ـ اصبري من فضلك ستسمعين بإذنك كل شيء.

ـ تفضل لقد أزدت من قلقي الواقع أصلاً.

ـ لا داعي للقلق لكل مشكلة حل إذ لا توجد مشاكل تستعصي على الحل أبداً.

ـ مشاكل وأية مشاكل تتحدث عنها وما دخل هذا بأشرطة التسجيل.

ـ امنحيني بعض الوقت لأقوم بتجهيز المسجل

وبالفعل جهزه بعد أن وضع الشريط بداخله وتلّفت قائلاً:

ـ سنسمع سوياً محتوى هذا الشريط ومن ثم نناقشه بهدوء وروية وبكل سرية وإن شاء الله تكون النتيجة التي سنتوصل إليها مرضية للجميع بمن فيهم أخي وصديقي.

ـ حسناً

قالتها وهي في غاية الارتباك إذ استشعرت بالآتي وبالفعل أدار المسجل الذي بدوره بدأ يفرغ ما خبأه وسط الدهشة الكبرى للسيدة.

بدّل الشريط واضعاً الذي يليه ومن ثم الآخر حتى انتهى من الشريط الخامس عندها صاحت السيدة قائلةً:

ـ هذا يكفي وارتخت على الكنبة مغمىً عليها، عندها أوقف المسجل وقام من مكانه و قصد خزانة جانبية يعرف محتواها جيداً إذ كان السيد يضع فيها أمتعته الشخصية من أمشاط وزجاجات العطر وغيرها.

فتح الخزانة وسحب منها زجاجة كولونيا واتجه نحو السيدة وقام برشّ بعض من محتواها على وجـه وأيدي السيدة التي بدأت باستعادة وعيها تدريجياً.جلس على كنبة بجانبها وهـو يراقبها حتى استفاقت تماماً عندها توجه إليها بالكلام قائلاً:

ـ ما هو رأيك بالذي سمعته سيدتي؟

ـ وهل السيد مصدر هذه التسجيلات؟

ـ نعم.

ـ يا ويلي إذاً كان يعرف كل شيء منذ فترة.

ـ نعم ولكن المهم ما هو رأيك لم تجيبي.

أجابت وهي مطرقة:رأيي وأي رأي تتحدث عنه يا رجل دمّر مستقبلي وانهدم بيتي.

ـ يعني أنك تؤكدين صحة ما جاء في هذه التسجيلات.

هزّت رأسها بالإيجاب وهي لم تزل مطرقة.

ـ تكلمي سيدتي أريدك أن تنطقي كي أفهم الذي حدث.

استمرت بصمتها المطبق هذا وكان ألف عفريت عقدوا لسانها عندها تأكد من صحة ما كان قد سمعه من التسجيلات هذه لذا قام وحمل الأشرطة وبعدها غادر دون أن يودّعها وكل هموم الأرض على رأسه ومتنه ممسكة بتلابيبه وتكاد تخنقه.

حدّث نفسه وهو يغادر قائلاً:

ـ الآن فهمت واستوعبت تصرّف السيد الأخير.

ركب سيارة أجرة وبفكر شارد إذ استمر بمحادثة نفسه:

ـ أقدّر كل ما قمت به يا صديقي كم كنت تعاني وبصمت ولفترات طويلة من تصرفات هذه السيدة، صحيح أنه يجب على الرجل أن لا يتجاوز واقعه لأنه إن فعل ذلك وقعت له الواقعة كما حدث لصديقنا وإن كنت أحمّله مسؤولية الجزء الأكبر من كل ذلك لكن ما مرّ به كان قاسياً على جميع الصّعد وبكل المقاييس وأحمد الله على أنه لم يزل يحافظ على توازنه وبالتالي عقله.

وصل منزله ودخل غرفته الخاصة رافضاً الإجابة على أسئلة زوجته الحشرية. دخل وأغلق خلفه الباب و انزوى على كنبة محاولاً تجميع و لملمة و ترتيب أفكاره التي ستتفتت كسرب طيور هاجمها باشق فجأة.

بقي هكذا حتى فترة ما بعد الظهر إذ قام ليتجهز وكان مقصده مكتب السيد حيث تلك السكرتيرة والتي أصبحت فيما بعد زوجته كونها هناك

كعادتها إذ تقوم بترتيب و إنهاء كـل متعلقات العمل لليوم وتحضيراً لمستجدات اليوم الآتي.

و بالفعل دخل حيث وجدها جالسة دون حراك خلف مكتبها شاردة ساهمة وكانت تركز نظرها فـي ما وراء النافذة حيث تلك المدينة العريقة.دخل المكتب و وقف لفترة طويلة وهو يراقبها دون أن تحسّ بوجوده وعندما تأكد من أنها في عالم ثان قام بحركة أعادتها للواقع حيث قامت من خلف مكتبها مرحبة ومعتذرة بارتباك عن شرودها هذا.

ـ لا عليك.لا عليك يا ابنتي ما نمرّ به يكاد يذهب بعقولنا فالشرود شيء عادي وبسيط في هذه المرحلة.

اجتمع بسلوى لفترة من الزمن استطاع خلالها أن يستحصل على معلومات تخصّ قضايا عدة، وبعدها غادر المكتب على أن يعود لاحقاً لمتابعة كل المستجدات، وعندما وصل منزله أبلغته زوجته بأنّ السيدة قد اتصلت به عدة مرّات وأنها تريد مقابلته حال وصوله.

رفع السماعة وطلبها حيث ردت متلهفة طالبة الاجتماع به حالاً .

" حاضر في الحال " .قالها وهو يغلق السماعة حيث غادر قاصداً المكان الذي حددته له و كان في زاوية قصية من حديقة مطعم فاخر اعتادت ارتياده في سابق الأيام.

ـ خيراً إن شاء الله سيدتي هل من جديد لقد أقلقتني وهل حدث للسيد مكروه.

ـ لا ولله الحمد السيد بخير ولن يمسّه سوء لكن أنا من أصابها السوء والتي بأمسّ الحاجة لمساعدتك أنت شخصياً.

ـ أنا تحت أمرك وفي خدمتك دائماً اطلبي ما تشائين.

ـ عزيزي أبو أحمد واسمح لي أن أناديك هكذا فأنت تعرف مكانتك عندي وعند السيد وبقية أفراد العائلة.

ـ أعرف هذا جيداً لذا تريننني أتدخل مفوّضاً نفسي بنفسي.

ـ نعم صحيح لذا طلبت مقابلتك هكذا وعلى وجه السرعة كي نتفق على صيغة ما تلملم وما تبعثر و تفكك من روابط وعلائق حياتنا أنا والسيد وبالتالي العائلة والأصدقاء بشكل عام.

ـ معك حق كلّي آذان صاغية تفضلي واطرحي ما عندك من مقترحات.

ـ استمع يا عزيزي جيداً لما سأقوله وإن كنت أعرف أنّ ما سأقوله لا يبرر ما حدث ولكن يجب أن أقول ذلك.

ـ تفضلي يا سيدتي كل شيء في هذه القضية والموضوع بشكل عام هام وقد يكون هاماً جداً.

ـ اسمع إذاً يا سيدي، منذ فترة من الزمن انتابني هاجس مفاده أنّ الوقت والزمن يمرّ و وصولي إلى المرحلة التي قد تمر وتمر كل امرأة تقدم بها العمر حيث البرودة والوحدة بحيث يصبح الليل طويلاً جداً والنهار مملّ جداً فتنفك عقدة دائرة الأصدقاء وخصوصاً الصديقات اللاتي وبمعظم الحالات كنّ من المنتفعات إذ يدرن هوائي توجهاتهن حيث المنفعة. لذا قررت أن أؤمن مستقبلي، ولست أدري إن كان ما قمت به من حيث نقل الأرصدة صحيحاً أم لا ولكن هذا ما حدث.إذ إنّ الغلط بطبيعة الحال سيجرّ الغلط حتماً لذا وضع القدر في طريقي ذاك الرجل الذي سمعت ما دار بيني وبينه سابقاً.

ـ أستطيع أن أتفهّم ما قمت به من حيث نقل الأرصدة لحسابك إذ أنا أعتبر أنّ لا فرق في الحياة بين ما يملك الرجل و زوجته والعكس يصحّ وخصوصاً إن وجد التفاهم والودّ ولا أريد أن أقول محبة والتي كنت وكلّي يقين بأنها لم تزل تحتفظ بركن ما من قلبك ومشاعرك أما ما حدث من تطورات لاحقة فهذا ما لا أستطيع تبريره.

ـ نعم معك حق، لقد فاتك أمر هام جداً.

ـ ألا وهو.

ـ هو أنه عندما يفكر الانسان بمصلحته الخاصة متجاهلاً كل من حوله يكون في هذه المرحلة بأمسّ الحاجة لمن يساعده حتى وإن كانت تلك المساعدة بالطرق غير المشروعة.لذا انبرى هذا الشخص عارضاً خدماته والتي قدرتها جيداً في حينه إلا أنه ولطبيعته الانتهازية استطاع أن يستغل هاجسي الذي كنت قد حدثتك عنه سابقاً خير استغلال إذ إنه بالإضافة لخدماته تلك كان يلازمني لفترات طويلة خصوصاً أثناء جولاتي وأسفاري الأمر الذي أزال الحاجز النفسي بيني وبينه محطّماً الحاجز الأخلاقي رويداً رويداً الأمر الذي أدى لما توصلت إليه من معلومات إذ كنت ولفترة طويلة قد قررت تنفيذ ما سمعت تماماً إلا أنه يبقى للقدر حسناته إذ قام بكشف ذاك الرجل أمامي معرّياً أهدافه وغاياته، صافعاً إياي صفعة أعادت لي وعيي المغيب معيداً بناء ذاك الحاجز النفسي الذي انكسر و بالتالي ما كان سيهدم من بناء أخلاقي.

ـ الحمد لله هذه خلاصة جيدة.

ـ نعم ولكن دعني أكمل من فضلك لأني وكما السيد قد تعبت جداً بل أرهقت من هذا الموضوع وما زاد من تعبي وإرهاقي هو أنني كنت أجاهد

لإخفاء ذلك عن زوجي و لم يكن يخطر ببالي أن يكون السيد على إطلاع تام على كل شيء.

ـ سيدتي أريد أن أسألك سؤالاً قد يكون محرجاً.

ـ أعرف ما ستسأله وسأقول هذا وعندها رفعت سبابتها إلى السماء: اللّه شاهد بأني لـم أرتكب أي عمل مشين في حياتي على الإطلاق وإن كل ما سبق وقلته لك هو الصحيح بعينه و أحمد اللّه على أنّ ذاك الشخص قد كشف نفسه أمامي لأعرف حقيقته.

ـ لكن يا سيدتي لا أشك فيك إطلاقاً ولكن ما كنت سأطرحه من أسئلة لأكوّن موقفاً واضحاً و صريحاً و متيناً كي أقوم بما سأقوم به بشكل سليم وعادل.

ـ معك حق قل لي ما الذي تريد مني أن أفعله الآن كي أثبت لك ذلك هل تريدني أن أعيد الأرصدة إلى ما كانت عليه وغيرها من أمور قد كنت سجلتها باسمي.

ـ لا، لا أريد ذلك وخصوصاً الآن لذا عليك إبقاء كل شيء على ما هـو عليه ريثما تنقشع هـذه الغمامة فيتوضح الطريق وينكشف الأفق وبموجب ذلك نستطيع تحديد ما هو مطلوب.

ـ حاضر سيدي أنا تحت أمرك.أعيد وأكرر أنا أحترمك ولم أزل بل زاد من احترمي لك وفاؤك النادر و تفانيك في سبيل أصدقائك فأنت ثروة حقيقية نادرة الوجود.

ـ هذا أقل ما يمكنني فعله وأطلب من اللّه أن يعينني على متابعة هذا الأمر.

ـ إن شاء الله وأنا واثقة من أنّ مساعيك ستكلل بالنجاح كون هدفك نبيل فلا يتعثر من كان هدفه نبيلاً.

ـ إن شاء الله دعي الأمر لي وسأقوم بالمطلوب وإن شاء الله ستكون النتائج جيدة.

ـ إن شاء الله.

وعندها غادرا كل في اتجاهه و الرضا يعمّ نفسيهما إذ كشفت الأسباب و توضّحت كل الخفايا.

وصلت السيدة إلى المنزل وكانت ابنتاها قد استغربتا غيابها المفاجئ هذا ولكن ما بدا على محياها من علائم حبور واضحة طمأنتهما دون أن تمنعهما من طرح الأسئلة.

ـ سأقول لكم كل شيء لكن الآن دعوني آخذ حماماً أريح به أعصابي وبعدها يكون لكنّ كل شيء.

ـ في هذه الأحيان كانت الأيدي الخفية تسعى في الخفاء وبشكل سري جاهدة لإتمام معاملة سفر السيد و سلوى إلى خارج القطر بحجة إتمام علاجه هناك إذ يتسنى له الخلو بنفسه أن تتاح له الفرصة كي يقيم كل شيء بعيداً عن أي ضغط أو ابتزاز ومن أية جهة كانت كونه يصبح بعيداً عن أعين كل الناس وكذلك أيديهم.

وحدث ذلك إذ قامت سلوى بما لها من دلال عليه بإقناعه بتلك الفكرة التي وافق عليها بتحفّظ شديد كونه ولنباهته أحسّ بريح مؤامرة تحاك بالخفاء له لكن، من أي جهة، وأيّاً كان المخطط ، هذا ما كان خافياً

عليه وبالأخص سلوى التي كانت قد حازت على ثقته وقلبه في الفترة الأخيرة لذلك كانت بعيدة عن دائرة شكّه وريبته.

كما ولأنّ ذاك الموضوع تمّ دون الرجوع لعائلته التي لم تعلم به إلا بعد فترة من الزمن الأمر الـذي كان لـه الوقع الكبير عليهم جميعاً و بالأخص السيدة الكبيرة إذ علمت بذلك عـن طريق فاعلي الخير الذين سرّبوا لها هذا النبأ بشيء من الخسّة والخباثة معلنين أنه قام بسفرته هذه برفقة سلوى سكرتيرته والتي أصبحت زوجته مؤخراً.

هاج هياج السيدة بشكل لا مثيل له إذ أنها كانت و في المرحلة الأخيرة تحاول جاهدة لإعادة ما انقطع بينها وبين السيد بمسعى جيد من قبل السيد أبو أحمد والذي عرف بنبأ خروجه من المصحّ وسفره هذا وذلك عندما قام بزيارة ذاك المصحّ حاملاً معه تلك الأنباء المريحة من التطورات الأخيرة التي كان قد أحدثها بمسعاه الأخير مع السيدة.وهنا الحمل قد زاد على كاهل أبو أحمد إذ أنه أصبح فـي موقف لا يحسد عليه كون مسعاه والذي كلّفه كل ذلك الجهد المضني نسفته حركة السيد هذه إلا أنه قرّر زيارة منزل السيد لتهدئة حالهم فـي محاولة منه للوقوف على كـل المستجدات بغيـة منع أي تأثير لكـل الارتدادات السلبية لما جدّ أخيراً.

وبالفعل فقد وجد السيدة الكبيرة فـي حالة من الهياج لا يمكن وصفها إذ ما إن رأته حتى بدأت تفرّغ مخزوناً لا يمكن تصوّره مـن رشات السباب و زخّات الشتائم و سيل الصفات المنتقاة من الوصف التي كانت تطبعها على السيد ومنبته وبيئته التي وحسب وصفها أنها هي من قامت بانتشاله من وحل حياته السابقة ورفعته إلى مصاف الطبقة المخملية التي تنتمي إليها. وهكذا يكون جزاؤها.

ـ فعلاً لا يوجد مثل غير صحيح إذ قال الأقدمون:

"إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا"

فعلاً أصبح بمقدورك التمرّد يا سيد يا محترم، إن لم أعدك إلى الوسط الذي أخرجتك منه لن يكون اسمي سمر. انتظر قليلاً وسترى يا سيد يا كبير. أنا تفضّل عليّ تلك التافهة.أنت تضع تلك بمساواتي. تحمّل إذاً.

والسيد أبو أحمد يردّ ويهدئ من روعها بشتى أنواع ووسائل الردّ المتبعة في مثل هذه الحالات.

بقيا هكذا إلى أن نال منها التعب إذ ألقت بنفسها على كنبة قريبة منها متسارعة الأنفاس متمتمة محدثة نفسها بعبارات أخذت معانيها تغيب إلى أن أصبحت مجرّد أصوات لا معنى لها و أقرب لما يطلق المحموم أثناء هذيانه.و من محاسن الصدف أنه لم يكن يتواجد في المنزل سواها و بعض الخدم إذ إنّ الفتاتين كانتا كلٌّ في مكان تنهي عملاً أو التزاماً هاماً.

عندما هدأت حدثها أبو أحمد بكل هدوء وبعبارات مشجعة ومساندة إذ قصد من وراء ذلك كسب ثقتها كي يستطيع وضع يده على كل ما ستقدم عليه لاحقاً.

وبالفعل ما إن هدأت ثورتها حتى عاد إليها رشدها الذي قاد أمامه اتّزانها المعهود والذي كانت قد اشتهرت به.

ـ آسفة أخي أبو أحمد.آسفة جداً.لقد صعقني هذا النبأ.

ـ معك حق ولا عليك سيدتي كل شيء سيصحح وما عليك إلا أن تهدأي وتريحي أعصابك كي نستطيع التفاهم على ما سنقوم به في آتي الأيام.

ـ ما الذي تقوله يا رجل بعد ما حدث هل تظنني عديمة الكرامة.

ـ حاشاك يا سيدتي فمكانتك وكرامتك محفوظة على الدوام.

ـ أية كرامة و أية مكانة تتحدث عنها و خصوصاً بعد أن انتشر خبر مغامرة السيد هـذه كيف سأواجه قريناتي و غيرهم مـن معارفي فـي تلك الأوساط و التي تعرف حضرتك جيداً كيف تدار و تفبرك الإشاعات والأحاديث.

ـ أعرف كل شيء وأوافق قلقك وتوترك هذا لكني وبالرغم من كل ذلك أنا متأكد بأنك وبحكمتك وسعة أفقك و مقدرتك على ضبط مشاعرك تستطيعين استيعاب و لملمة الموقف و الحد مـن انتشاره لتقليل أخطاره اللاحقة قدر الإمكان.

ـ هذا هو ذنبي أنني واسعة الأفق ودبلوماسية الأمر الذي جعل كل من حولي يعتمد على ذلك فيتصرف كما يهوى وحل ولملمة واستيعاب كل الأخطاء والسلبيات تكون على عاتقي.

ـ هذا قدرنا نحن الاثنين سيدتي إذ علينا أن نكبر على المشاكل و إلا اكتسحتنا.

ـ ما هو المطلوب مني الآن؟

ـ أن تهدأي وتتروّي وتفكري جيداً وأن لا تقدمي على أي تصرّف يزيد من هول ما نحن فيه.

ـ أهدئ أعصابي نعم أتروّى كذلك ولكن اسمع ما هو قراري الأخير لأني اتخذته ولن أتراجع عنه مهما كانت الأسباب.

ـ ما هو هذا القرار؟

ـ سأطلب الطلاق من ذاك الشخص عديم الوفاء.

ـ وكّلي الله يا سيدتي أيّ طلاق تتحدثين عنه وهل هذا تصرّف تقدم به واحدة مثلك وفي مثل مركزك و مكانتك.

ـ نعم وأنا من ندم على شيء صار وكنت ولفترة قصيرة أحاول جاهدة لرأب الصدع الذي حدث بيني و بينه لكن هذا التصرّف الذي قام به كان كالقشة التي قصمت ظهر البعير.

ـ أكرر، هدئي من روعك سيدتي علينا التقليل من الخسائر قدر الإمكان لا أن نزيدها.

ـ إن لم تخرب تماماً فلن يعاد إعمارها.

ـ لا يا سيدتي ما الذي حصل لك أين عقلك الراجح وتفكيرك الرزين ما الذي تركته لتلك النسوة اللاتي تعرفينهن جيداً.

ـ هذا قراري الأخير وعليك إبلاغه بذلك إن مكّنتك تلك السلوى من رؤيته.

ـ لا، سأتدبر كل شيء وسأبذل كل جهدي لإصلاح ما خرب وبناء ما تهدّم هذا وعد.

ـ هيه، هه. ولاحت برأسها بشكل غريب.

غادر أبو أحمد و الغم و الغيظ يكادان يفتكان بـه، بينما قامت السيدة لتتصل بالمحامي طالبة موعـداً لمقابلته.

وفي مكتب المحامي الفاخر والكائن في أحد الأحياء الراقية من تلك المدينة:

ـ خيراً إن شاء الله سيدتي لقد أقلقني اتصالك وإلحاحك على عقد هذا اللقاء.

ـ ليس خيراً بل كارثة.

ـ أعوذ بالله.خيراً تكلمي سيدتي.

ـ جئت لأكلّفك رسمياً كيي تتم كل إجراءات طلاقي من زوجي السيد.

ـ طلاق!قالها مستغرباً.

ـ نعم ، حفاظاً على سمعتي و سمعة ومكانة عائلتي من أهلي وأبنائي وخوفاً من أن تطالهم جميعاً سهام سمعة السيد السيئة.

ـ عن أية سمعة تتكلمين سيدتي.

ـ ألم تعلم بالذي قام به مؤخراً.

ـ لا بل كنت أرتّب اللقاءات الداعمة له في موقفه الذي أقدم عليه مؤخراً وهذا أمر يشرّف كما أعلم إذ و رغم كـل إساءات المسيئين فأنتم كمـا السيد محطّ إعجاب بـل وغيرة العديد مـن الناس العاديين و الشخصيات الكبيرة.

ـ أنا لا أتكلم عن هذا.

ـ عن ماذا إذاً؟

ـ عن علاقته المشبوهة بسكرتيرته و زواجه الغريب منها.

ـ عن أية سكرتيرة تتكلمين؟

ـ عن سلوى مديرة مكتبه.

ـ وهل تزوّجها فعلاً أم هي إشاعة كالتي نسمع بين الحين والآخر.

ـ لا ليست إشاعة بل تزوّجها فعلاً وهما الآن يقضيان شهر عسل خارج البلد.

ـ إن كان هذا رأيك فليس بوسعي ردّ أو حدّ إرادتك.

تمّ كل ما سبق والسيد برفقة سلوى يمضيان أياماً حلوة ويذوقان طعم السعادة الحقيقية في ربوع تلك البلاد الرائعة والراقية مستمتعين بما كان قد أودعه هناك من مال إذ أمضيا عدة أيام كانت شهر عسل بكل ما لهذه الكلمة من معنى .. ولكن ومثلما قال الشاعر:

فمن ظنّ أنّ الدهر باق سروره

فذاك محال إذ لا يدوم سرور

حيث تلقّت سلوى برقية مفادها أنّ السيد قد تمّ عزله من منصبه ولأسباب صحية.صعقت سلوى عند سماعها هذا النبأ والذي ستكون أولى ارتداداته السلبية حياتها التي ستصبح على المحك إذ سيدمّر كل ما كانت قد قامت به ورتّبت له حتى الآن لذا سعت جاهدة كي تخفي النبأ عن السيد تماماً ولعدة أسباب أوّلها وقعه السيئ على مسمعه إذ سيؤثر حتماً على نفسيته إذ سيصدم تماماً مما قد يدفعه للقيام بتصرف قد يكون مدمّراً إذ قد يقوم بتصرف ينهي به حياته وفي أحسن الأحوال أنه قد يتصرّف و كردّة فعل تصرّفاً أحمقاً يدمّر من جرّائه كل شيء بحيث تصيب شظايا ذاك العمل كل من حوله وبالأخص هي كونها وحيدة في هذا العالم ولا سند لها يمكن أن تعتمد عليه في مثل هذه الظروف. لذا قررت أن تمهّد له ذاك الأمر بأن تحاول جاهدة لإقناعه بفكرة إحالة نفسه على التقاعد كي يتثنّى لهما أن يمضيا البقية المتبقية من حياتهما في ربوع تلك البلاد الجميلة مستمتعين بثمرة عملهما.

ارتاحت نفسه لتلك الفكرة وخصوصاً أنه لم يفق بعد من تلك السعادة التي عاشها ومازالت في هذه الفترة.

رضي عن تلك الفكرة لدرجة أنها شغلت جلّ تفكيره وعلى وجه الخصوص عندما كان يختلي بنفسه حيث كان يقلّب ذاك الموضوع مفنداً

إيجابياته وسلبياته ومحاولاً حسم أمره واتخاذ القرار.

إلا أنّ الحاقدين الذين لا يتركون أحداً بحاله إذ قاموا بإرسال شخص كانوا قد كلّفوه وأوكلوا إليه مهمة إيصال تلك الأنباء إلى السيد حيث هو. إذ تمّ ترتيب رحلة علاجية لذاك الشخص و إلـى نفس المصحّ بالذات كي يتمكّن وبسهولة من القيام بمهمّته تلك وبالفعل سافر ذاك الرجل ودخل ذاك المصحّ إذ باشر بالفحوصات المطلوبة كي يتمّ وضع خطة علاج نظامية له،وبنفس الوقت كان شخص آخر قد وصل و بشكل سرّي إلى تلك الدولة حيث قـام برشوة أحـد مستخدمي ذاك المصحّ مكلّفاً إياه بإيصال رسالة مختومة من المحكمة الشرعية ومفادها ما كانت قد تقدمت به زوجته وكان لسوء التوقيت أن وصل كل من النبأين للسيد حيث كان يستمتع بمرأى بضع أشخاص يمارسون رياضة ركوب الأمواج .

عادت سلوى من جناحهما لتجد السيد في حالة يرثى لها.استفسرت منه لكنه لم يجب بل قام بمناولتها ظرفين مهر أحدهما بخاتم المحكمة الشرعية والثانية كتب على مغلّفها فاعل خير.

تصفّحت كل رسالة على حده وهنا كانت الصدمة التي شلّت حركتها وعقدت لسانها إذ إنّ كل ما كانت قد قامت به وبذلت من جهد ضاع سدى وكل آمالها وأحلامها قد بعثرتها تلك الرياح القادمة من بعيد.

إذ إنه وبالرغم من كل محاولات سلوى أصرّ السيد على العودة إلى أرض الوطن ووقف العلاج، وكان لعودة السيد المفاجئة الوقع السيئ على تلك البطانة التي تداعت لاجتماعات عدة بغية البحث عن السبل التي تؤدي لمواجهة هذا التطور الجديد والمفاجئ بكل ما تحمله هذه الكلمة مـن معنى إذ أنهم وبعملية نقله إلى خارج البلد بحجة الاستشفاء ظنّوا أنفسهم

بأنهم بمنأى عـن كل المشاكل إذ إنّ المحرّك وصاحب اليد الطولى فـي توريطهم وجرّهم للمشاكل أصبح بعيداً جداً عـن أعين وأيادي السلطات.

لكن ولأنّ ما حدث قد حدث فعليهم اتخاذ ما يلزم. لـذا و بعد عـدة اجتماعات ضمّت حتى الأعداء تقرر ما يلي:

مراقبة السيد بدقة إذ أنّ كل حركة قد تصدر عنه تعني هلاكهم لذا وضعوه تحت المراقبة الدائمة والدقيقة تحسّباً لكل طارئ كما أنهم قاموا بوضع خطة طوارئ احتياطية يقضي بالحجر عليه تماماً وسيعتمدون على عائلته بذلك كون زوجته وبعد هذا المستجدّ الجديد والتي تمّ بموجبه عزل السيد مـن منصبه وإحالته إلى التقاعد وتحت ضغط أهلها وبالأخص أخويها اللذين فرضا عليها أن تلغي كل مـا كانت قد قامت به بدعوى أنه ليس من اللباقة والكياسة بشيء أن تتخلى عن زوجها و في هذا الظرف العصيب الذي يمرّ به لـذا توجّب عليها سحب وإلغاء دعوى الطلاق وكذلك أيضاً أن تقوم برعايته و الاهتمام بصحته حتى تمر هذه الأزمة على الأقل.

وبالفعل مثل السيد الهدوء والقبول بالأمر الواقع إذ أنه التزم بيته لفترة طويلة مثبتاً بذلك للمراقبين الذين استشعر بوجودهم بأنه تأقلم مع الوضع الجديد.وبالفعل استغلّ هذا الوقت بالذات إذ كان ولفترات يدخل مكتبه ويقفل الباب عليه مانعاً أي شخص من الدخول حتى يخرج هو مـن المكتب أو يستدعي أحداً.

حيث كان يعدّ تقريراً مفصّلاً عن كل المخالفات والتجاوزات وغيرها من الموبقات مقرونة بالأسماء و التواريخ وبعض من المستندات التي كانت بحوزته آملاً أن تسنح الفرصة له بأن يقدمها للجهات العليا.

في هذا الوقت ذاته ركنت السيدة الكبيرة وهدأت تماماً وخصوصاً أنّ السيد لم تصدر عنه أي ردة فعل تستدعي القلق وكل ذلك انعكس على

نفسية ساكني المنزل بمن فيهم الخدم إذ أنّ الابنتين تابعتا حياتهما بشكل طبيعي متجاوزتين مضايقات بعض ممن يحملون الضغينة لهما ولأمثالهم وكذلك متأقلمين مع كل ما طرأ على حياتهما.

فبذلك استقرت حياة الكبرى مع خطيبها الذي كان قد حدّد موعداً لعقد قرانه بعد تخرّج الخطيبة مباشرة الأمر الذي أفرح السيدة إذ أنها تأكدت تماماً من صدق وإخلاص هـذا الشاب الذي يعتبر أمثاله نادرين في مثل هذه الأيام والظروف.

وصل خبر ما عزم عليه وبدأ بتنفيذه السيد وذلك عبر خادمة كانت قـد دسّت مـن قبل أولئك لتكون عينهم هناك حيث لا يستطيعون متابعته بشكل مباشر.

لذا ثارت ثائرتهم من جديد وعزموا على تنفيذ الخطة الثانية والتي نصّت على منع وصول هذا التقرير إلى الجهات العليا مهما كانت الأسباب و ذلك أولاً عن طريق السرقة بحيث يستولى على ذاك الملف وكل ما بحوزة السيد من مستندات كي لا يتمكّن مـن استخدامها ولذلك كلّفت تلك الخادمة بهذا العمل كونها الوحيدة التي أصبحت تعرف كـل خفايا ومحتويات مكتب السيد كونها تقوم بترتيبه وتنظيفه يومياً بالإضافة إلى أنها كانت تقوم على تلبية كل طلباته.

لكنّ السيد كان مـن الدهاء بحيث قام بتسليم الملف الأصلي بعد أن أتمّه وبشكل سري إلـى السيد أبو أحمد الذي كان بدوره محمّلاً دائماً بمصنّف يحوي بعضاً من الجرائد الرسمية الصادرة لذا و بموجب ذلك تمكّن من إخراج ذاك الملف وعبر المصنّف ذاته كي لا يثير حفيظة وانتباه كل من فـي البيت و خصوصاً الخدم طالباً منه أن يحتفظ به و في مكان آمن إلى أن يحين الوقت الذي يطلبه فيه منه و إن حدث أي طارئ عليه تسليم ذاك

الملف إلى الجهات العليا فوراً، وكان قـد قرر ذلك عندما اكتشف أمر فتح الخزانة من قبل الخادمة والتي كان قـد استدعاها وحقق معها والتي قالت أنها كانت تقوم بعملها المعتاد وكانت الخزانة مفتوحة فقامت بترتيبها وتنظيفها ومـن ثم أعادت قفلها.

مرّر الأمر على أنـه عادي بعد أن أكّد عليها عدم فتح أي ورقة أو أي ملف حتى تلك التي كان يتركها على طاولته.

بعد أن سلّم الملف الأصلي قام بكتابة وتجهيز ملف خلّبي حيث وضعه في الخزانة تاركاً الأيام تمرّ و كذلك كل شيء يسير بسلامة وهدوء وكأنّ شيئاً لم يكن.

ذات يوم اكتشف أمر سرقة ذاك الملف وكذلك تلك الخادمة التي كانت قد اختفت بدورها عندها تيقّن من أنّ المؤامرة التي حيكت وتحاك ضده مستمرة والذين يقفون وراء كل ما جرى مؤخراً مصممون على التخلص من كل شيء يخصّه وقد يؤثر عليهم الآن ولاحقاً لذلك تابع حياته متحفّزاً مستنفراً محاولاً استشعار الخطر والذي أصبح على يقين أنه قادم.

وما إن اكتشفت تلك البطانة خداع السيد لها وأنّ أمرها قد فضح وإنّ قيام السيد بعمل مدمّر لهم جميعاً بات قاب قوسين أو أدنى.

لذا قرروا وبالإجماع أصحاب وأعداء على التخلص منه شخصياً وذلك بعد أن عقدوا اجتماعاً مفتوحاً في مكان سرّي تقرر خلاله ذلك إذ قاموا بوضع خطة يتمّ من خلالها عملية تصفية السيد في منزله على أن تظهر أنها عملية انتحار بحيث تروّج الإشاعات المشيعة عـن تدهور حالته النفسية وكذلك حراجة حالته العصبية فبذلك تمهّد الجو العام لتقبّل ذاك العمل دون أن تكون هناك ردة فعل تذكر.

لكن ولتنفيذ هكذا خطة توجّب إشراك سلوى بها كونها بالدرجة الأولى كانت السكرتيرة الشخصية للسيد وهي تمتلك الكمّ الهائل من المعلومات عن عمله وعن معظم ما قام بـه كونها كانت ترافقه أينما ذهب وأينما حل.

رفضت سلوى بشدة ذلك قائلة :

ـ أنا أقوم بذلك هل جننتم.

ـ لم لا لأنّ الخطر سيطالك حتماً رضيت أم لا.قالها أحدهم.

ـ لن أقوم بذلك حتى ولو كلّفني ذلك حياتي.

ـ ستدفعين حياتك رخيصة إن لم تشتركي معنا كونك ستدخلين المعمعة بإرادتك أم بدونها.

ـ كيف ذلك؟

ـ أنسيت أننا نحتفظ لك بالتسجيلات الصوتية و كذلك أشرطة الفيديو التي كـانت تصور كـل لقاءاتنا و حفلاتنا وغيرها من جلسات تمّت فيها معظم اتفاقاتنا وصفقاتنا.

عندها تيقنت من أنّ الأمر جدي وأنّ مـا كانوا قد أبرزوه أمامها مقنع ولا حول لها تجاه ذلك ووافقت مكرهة.

ـ برافو، كنّا متيقنين بأنك ستحكّمين عقلك و تغلبينه على عواطفك لذا احضري معنا الليلة كـي تتسلّمي دورك المخصص في هذه العملية.

ـ وهل وزّعتم الأدوار؟

ـ نعم إنها عملية خطرة بل خطرة جداً وأي خطأ فيها مهما كانت نسبته قد تودي بحياتنا جميعاً.

ـ معك حق.قالها أحدهم مؤكداً.

ـ حسناً الاجتماع اليوم مساءً الساعة الثامنة في منزل السيد " راضي " الخاص فأنت تعرفينه جيداً.

ـ نعم أعرفه أليس هو بالحي الجنوبي ؟

ـ نعم لقد حضرت فيه عدة ولائم وحفلات خاصة.

ـ نعم صحيح تذكرته جيداً.

ـ إذاً اتفقنا.

ـ نعم اتفقنا.

ـ إلى اللقاء مساءً.

وغادروا بعد أن ودّعوها وهم فرحون لقبولها هذا دورها في تنفيذ الخطة سيكون أساسي لما سيأتي لاحقاً.

اجتمعت تلك البطانة التي كان وبشكل دائم وفي الأيام العادية يرفرف الشيطان وأعوانه فوق رؤوسهم حيث يجتمعون فما بالك في هذا اليوم الاستثنائي إذ سيكون الشيطان حاضراً وجالساً بينهم بل جالساً في رأس كل واحد منهم لذا كانت تلك الخطة والتي يمكن أن يطلق عليها صفة الشيطانية والتي نصّت على أن تتم عملية تصفية السيد في منزله على أن تظهر على أنها عملية انتحار ولتنفيذ ذلك توجّب إدخال فتاة من قبلهم على أنها ممرّضة مهمتها الإشراف على علاج السيد وكانت على طبيعة الحال من ضمن المجموعة المشرفة على علاجه في ذاك المصحّ قبل أن يتمّ اتخاذ قرار متابعة العلاج خارجاً.

لذا لم يثر وجودها في المنزل ارتياب وشكّ أحد حتى السيد ذاته.

.....

في هذه الفترة وبينما كان السيد أبو أحمد يجتاز الشارع فاجأته سيارة كان يقودها شاب في مقتبل العمر وكانت تسير بسرعة جنونية لذا ولعدم تمكنه من تلافي ذلك صدمته بحيث ألقته مسافة بعيدة على يمين الطريق بين الحياة والموت إلى أن تمّ نقله إلى أحد المشافي حيث بقي هناك وفي غرفة العناية المركزة كونه تعرّض لعدة كسور في أعضاء متفرّقة من جسده وكان أخطرها الكسر الذي أصابه في مؤخرة الجمجمة لذا تمّ عزله نهائياً عن كل زوّاره عدا الطاقم الطبي المعالج وبذلك تم عزله قسرياً عن مسرح الأحداث، الأمر الذي كان له عظيم الأثر في كل الأحداث التي جرت بعد ذلك.

وعندما حددت ساعة الصفر لتنفيذ العملية التي تمّ الاتفاق عليها من قبل تلك المجموعة تمّت دعوة العائلة بأكملها بالإضافة لصهرهم وعائلته أيضاً إلى مأدبة عشاء أقيمت خصيصاً لهم في إحدى المطاعم الفاخرة الرابضة في إحدى ضواحي المدينة حيث الإطلالة الجميلة والهواء العليل.

لبّت العائلتان تلك الدعوة وبدعم وتأييد من السيد لذلك الأمر معللاً ذلك بأنّ ما مرّت به كل العائلة في الأيام الماضية يحتاج إلى شيء من التغيير ليروّحوا عن أنفسهم وبنفس الوقت كي يسنح له الاختلاء بنفسه كي ينهي أمراً هاماً بدأه منذ فترة.

وعندما غادرت تلك الأسرة المنزل قامت تلك الممرّضة بدسّ مخدّر من ممانع الأدوية التي يتعاطاها السيد في وعاء شراب قامت بتوزيعه على كل من بقي في المنزل بمن فيهم الحرّاس كاحتفال إذ نادراً ما كان يخلو البيت هكذا و ذلك كي يفسّر ذلك بأنه خطأ غير مقصود وقع به أحد الخدم إذ أخطأ بالعبوات و حدث ما حدث.

وفـي تلك اللحظة التي استسلم فيها الحراس للنوم دخلت سلوى المنزل بواسطة مفتاح كان السيد قد سلّمها إيّاه سابقاً عندما كانت لم تزل سكرتيرته كي توافيه فـي أي وقت كان.

حيث دخلت عليه قاطعة خلوته تلك وهي تحمل في يدها صينية عليها كأس شراب من النوع الذي لطالما فضّله سابقاً.

وما إن رآها حتى هلّل فارداً أساريره صائحاً:

ـ أين أنت أيتها الفاتنة.كيف عرفت بخلو البيت من البقية؟

ـ لي مصادري يا عمري.

ـ أطال الله عمرك وأبقاك لي زهرة تزيّن البقية الباقية من حياتي.

ـ أمدّ الله في عمرك يا حبيبي.تعال واسترح كوني لا أستطيع البقاء طويلاً.

ـ ألم يرك أحد من الحراس؟

ـ لقد غافلتهم والخادمة أعرفها جيداً لذا لن تفضح أمري.

ـ حسناً فعلت.

ـ استرح أنت ولا تشغل بالك بأي شيء المهم هو صحتك وسلامتك.قالتها وهي تناوله كأس الشراب الذي حوى ذات النوع من المخدّر لكن بشيء من التركيز كي يكون مفعوله قوياً وسريعاً.

ما إن استسلم السيد للنوم حتى قامت كي توعز للبقية المرابطة خارج السور وتنتظر إشارة البدء.

ـ هيا تعالوا. قالتها همساً حيث دخلوا متسلّقين السور وعبر نافذة قامت بفتحها لهم مـن الداخل.

و عندما أصبحوا داخـل المنزل انتقلوا جميعاً إلـى حيث ينام السيد وهناك قامت بتسليمهم لفافة حوت مسدّس السيد الخاص والذي كان يحتفظ به في خزانته الشخصية والتي كـانت تعرف تماماً أين كـان يخبئ محمولة مفاتيحه الخاصة.

قام أحدهم وهو يرتدي قفّازات بتلقيم المسدس ومـن ثم وضعه بيد السيد ممسكاً إياه بالطريقة المعتادة حيث أخذ له إصبعه ووضعها على الزناد وقام بالضغط على إصبعه وهو يسدد فوهة المسدس على صدغه لتنطلق رصاصة فجّرت رأس السيد الذي اختلج قليلاً وهمد إلى الأبد.

تأكد الجميع من مفارقة السيد للحياة وبنفس الوقت كانت مجموعة منهم تقوم برصد كل حركة خارج الغرفة وعندما تأكد لهم بأنّ كل شيء سار على ما يرام وكيفما تمّ التخطيط له.

غادروا من حيث دخلوا عبر السور بينما قامت سلوى بالمغادرة عبر البوابة بعـد أن أغلقت كـل النوافذ وبالأخص تلك التي تسلل منها منفذو العملية ومن الداخل و مـن ثم أغلقت الباب خلفها و غادرت قاصدة مكان الاجتماع مستقلة سيارة أجرة من شارع ثانوي قريب من منزل السيد منعاً لإثارة الشبهة وتحسّباً لكل طارئ و هي تحمل ملفاً كانت قد سرقته من الخزانة.

استلقت سلوى في سريرها بعد أن وصلت وبكامل ثيابها حتى حذاءها لم تقم بخلعه للحد الهائل من الاضطراب الذي كانت تعانيه بعد أن عادت من ذاك الاجتماع الذي ضمّها بالبقية إذ تمّ وضع خطط احتياطية لمواجهة أي طارئ قد يبرز.بنفس الوقت قامت بتسليمهم الملف.

فكرت طويلاً إذ قلّبت الموضوع بل المواضيع من كافة جوانبها وهي تطلب نوماً عزّ حضوره جداً حتى أنهكها السهر.

استفاقت سلوى باكراً بعد أن غادرت سريرها كمن لسعته أفعى قاصدة طاولة كان عليها التلفزيون.

أدارته وكان يبثّ نبأ انتحار السيد الذي فاجأ الجميع رؤساءً ومرؤوسين وكذلك الأصدقاء حسب ما كان يقول التقرير اللاحق الذي أخذ التلفاز يبثّه والذي تضمّن بعضاً من سجايا وخصال السيد الراحل الذي ترك بصمات لا تمحى من سجلّ تاريخ هذا البلد كون الخدمات الجلّى التي قدمها حتى آخر لحظة من حياته والتي أتت بالخير على الوطن والمواطنين جميعاً.

استمرت سلوى بمتابعة ما بثّه التلفاز عن ذاك الحدث المفجع والأمر الجليل كما كان يوصف بين الحين والآخر من قبل مقدِّم البرنامج وكذلك تلك المشاهد من مكان الحادث الأمر الذي أثّر في سلوى لدرجة كادت أن تهوي أرضاً إلا أنها تماسكت حيث استندت على الحائط حتى وصلت إلى سريرها الذي جلست على حافته ممسكة برأسها بكلتا يديها وهي تجهش ببكاء حار على شخص كان وحتى ليلة أمس أمل عمرها وسندها في كل مفارق ومنحنيات حياتها وخصوصاً منها العمليّة.

ولشدة الإحباط الذي أصابها إذ حمّلت نفسها مسؤولية كل ما حدث كادت أن تنهي حياتها إلا أنّ عقل الرحمن كما يقال أعادها إلى وعيها حيث أحجمت عن فعل ذلك خشية أن توجّه لها الاتهامات المباشرة بخصوص ما حدث لذا قررت أن تنتظر لتقف على كل المستجدات التي ستقع في قادم الأيام.

شيّع السيد بموكب مهيب إلى مثواه الأخير كما أنه قد تمّت إقامة مجالس عزاء في كل مكان تكريماً و وفاءً له.

وكل ذلك تمّ وسط ذهول كل أفراد عائلته الذين بدوا كما أظهرتهم شاشات التلفزة وهم في غاية الأسى والحزن الذي بدا جليّاً على وجه ولده الذي حضر إثر ذاك الحادث الجليل.

انتهت تلك المراسم ومرّت أيام العزاء طويلة على كـل من تعامل مع السيد أصدقاء كـانوا أم أعداء بحيث كان لكل طائفة منهم هواجسها الخاصة إذ إنّ الأصدقاء الذين كان السيد يمثل لهم القدوة والسند ويد المساعدة التي افتقدوها،أما تلك المجموعة المنتفعة والتي قامت بتنفيذ تلك الفعلة عاشت تلك الفترة على أعصابها كما يقال مترقّبة متوجّسة مـن كل طارئ أو نبأ.إذ بقي الجميع هكذا حتى انقضت تلك الفترة دون أيـة انتكاسة حيث عاد الجميع أصدقاء وأعداء لحياتهم الطبيعية حيث بذل الأصدقاء الجهد للتأقلم مع الوضع الجديد أما الأعداء فقد بذلوا هم جهداً أيضاً ولكن في سبيل غاية أخرى ألا وهي كيف سيعاملون من سيخلف السيد في منصبه.

كل ذلك مرّ والسيد أبو أحمد لم يزل في غرفة العناية المركزة إلى أن غادرها ليمضي فترة استشفائه اللاحقة فـي أقسام أخرى من ذاك المشفى وكل ما حدث للسيد لم يزل خافياً عنه خشية تدهور حالته الصحية.

بعد فترة أبدت سلوى رغبتها في لقاء كل من ابنة السيد الكبرى وخطيبها حيث أعلنت استعدادها لتقديم كل ما يمكن تقديمه و أنها كذلك ستغادر هذه المدينة باتجاه بلدتها لتقيم بقية عمرها فـي كنف والديها راجية أن تستمر علاقتهم وبالودّ الذي اعتادت عليه احتراماً وتقديساً لذكرى من كان السبب في الجمع بينهم. قدّرت الابنة وخطيبها ذلك الموقف إذ أبدوا استعداداً لدعمها ومساعدتها دائماً.

قصدت سلوى بلدتها التي كانت قد غادرتها منذ سنوات عدة وكل غايتها أن تتمكّن مـن الإقامة هناك نهائياً.لكن ولطبيعة الحياة التي عاشتها هناك في العاصمة والتي توّجتها الحالة التي آلت إليها مؤخراً لم تستطع أن تبقى فـي بلدتها إلا لفترة بسيطة حيث قامت بعد أن مهّدت لأسرتها بأنها ستنتقل مجدداً إلى العاصمة حيث ستسلم عملاً آخر ريعه لا بأس به.وكون ما صارت إليه حالة أهلها المادية نتيجة لدعمها لهم مالياً وافقوا دون أية تحفّظات على ذلك وغادرت...

وبعد فترة أبلغت أهلها عن طريق أحد أشقائها الذي كـان بالعادة يقوم بزيارتها بين الحين والآخـر حاملاً معه مـا كانت تنقده إياه مـن مبالغ أنها ستغادر موفدة مـن قبل تلك الشركة التي تعمل بها لتتسلّم إدراة المكتب هناك مفندة مـا ستحصل عليه مـن مرتبات ستعود بالنفع عليهم جميعاً.

وبالفعل غادرت لتعيش في رحاب بلد مجاور مستمتعة بما كان قد رصده لها زوجها ومعلّمها الراحل من مبالغ فـي أحد بنوك تلك الدولة بالإضافة لما كانت تزيده على ذلك مما كانت تحصل عليه من نواتج تلك الصفقات وكذلك ما كان يصل إليها من هدايا مغرية ومجوهرات وغيرها .لذا عاشت هناك حياة رفاهية بكل ما لهذه الكلمة من معنى إذ أخذت تقوم

بالجولات والرحلات وتقيم الولائم والحفلات التي اعتادت إقامتها وحضورها سابقاً.

تسرّبت أخبارها بشكل عام وبالأخص ما كانت تقوم به من لقاءات و ما كانت تدلي به من تصاريح لمتصيّدي تلك المعلومات والأخبار من مندوبي تلك الوكالات الإعلامية التي تعيش من دماء تلك الإشاعات وعليها.

الأمر الذي زرع بذور الشكّ والريبة منها عند تلك المجموعة المسعورة والتي كانت قد أيّدت سفرها هذا الذي سيبعدها عن مضمار عملهم وتحركاتهم لكن بموجب ما جدّ من أنباء وأخبار عما تقوم به تلك السلوى لذا تداعوا للاجتماعات المتلاحقة التي أفضت إلى أمر هام ألا وهو يجب تصفيتها للتخلص منها وإلى الأبد كون أن تبقى حية وسيف معلوماتها مسلّط على رقابهم هذا ما لم يرضوا به مطلقاً.

لذا أرسلوا إلى ذاك البلد فريقاً من المحترفين لديهم في مثل تلك الأعمال حيث عادوا ليقدموا تقريرهم المفيد بأنّ كل شيء تمّ كما يرغب الجميع.

وبالفعل وجدت سلوى ميتة في فراشها ذات صباح إذ أثبتت كل التحقيقات ونتائج التحاليل وغيرها بأنّ سبب الوفاة هو دخول كمية كبيرة من مواد مخدّرة كانت في الفترة الأخيرة قد بدأت بتعاطيها، وذلك في كأس شراب تناولته قبل وقت.

فبذلك دفعت سلوى الثمن دون أن تتعلّم وهذا مخالف لقاموس الحياة كون المرأة تتعلّم سريعاً لأنها تدفع الثمن فوراً

.....

بعد كل ما حدث وما استجد من أشياء حيث كل الناس نسوا أو تناسوا ما حدث للسيد أو لزوجته السابقة سلوى إذ إنّ مثل هذه المواضيع تنتشر وتلوكها الألسن إلى أن تعافها إذ تبدأ بنسيانها تدريجياً.

وفي ظلّ كـل ذلك و ذات صباح بديع ليوم مشرق شوهدت سيارة أجرة عادية تقف أمام مبنى إدارة قضايا الدولة و يترجّل منها رجل كهل خمسيني معتمداً على عكازيه وكان يساعده على تسلّق الدرج شاب في مقتبل العمر.

وكان ذاك الكهل يتأبّط ملفاً كبيراً....

تمت في
٢٠٠٧/٦/ ٣٠